د. أحمد خالد توفيق
روايات مصرية للجيب
35
سافاري
رجال من رجال
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد كما يقول الغلاف كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال إفريقيا) وهو محرَّف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهالٍ متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه ، فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقو الأعضاء ..

هناك كما قلنا من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ، ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

(حدث بالفعل)

كانوا على قدر عال من التوتر وهم يقفون فى المطار ..

الطائرة تلوح فى الأفق ثم تنحدر متجهة نحو الممر لتبدأ عدوها المحموم ..

برغم سن الرئيس الفرنسى (ميتران Mitterand) المتقدمة ، وخبرته بالعمل السياسى ، فإنه لم يعتد أن يقابل شخصًا يحمل له كل هذا الاحترام . لهذا أدرك المحيطون به أنه عصبى بعض الشىء ..

ينفتح باب الطائرة ويظهر ذلك العجوز الأشيب الضحوك .. العجوز الذى اعتاد (ميتران) أن يراه فى الملصقات التى تطالب بإطلاق سراحه .. المناضل الذى قضى أكثر حياته وراء القضبان يحمل بدلاً من اسمه رقم (46664) ،لكنه اليوم ـ عام ١٩٩٤ ـ يخرج للعالم مبشرًا بجنوب أفريقيا جديد ..

إنه (نلسون مانديلا Mandela) .. الرجل الذى تتلخص فيه كلمة جنوب أفريقيا .. ربما تتلخص فيه كلمة (أفريقيا) ذاتها ..

ما إن صافح (ميتران) حتى شعر الرئيس الفرنسى بذلك الدفء المغناطيسى الذى تحدثوا عنه .. إنه لم يعد يهاب الرجل بل هو يحبه .. يحبه إلى درجة أنه سيفعل أى شىء يطلبه ..

وقد مشى (مانديلا) بعكازه وقميصه البسيط (ماديبا) زاهى الألوان وسط حرس الشرف .. قدماه متخشبتان بفعل السن ، لكنه برغمهما على الطاعة .. ووقف فى احترام يصغى لنشيد (المارسلييز) .. لكنه لم يكن من الطراز المولع بهذه الطقوس .. كان ملولا يهوى أن تكون الأمور طبيعية أكثر من هذا ..

عندما انتهت المراسم أوصلوه إلى قصر (الإليزيه) ؛ ليستريح ..

وفى المساء التقى الرئيسان على مائدة العشاء ...

بدأ (مانديلا) يحكى قصصًا مسلية عن جنوب أفريقيا ، وبرغم أن الترجمة الفرنسية كانت تُفسد الكثير إلا أن (ميتران) راح يضحك .. الحق أن روح الدعابة كانت قوية لدى الرئيس الأفريقى العجوز ..

عندما انتهى العشاء سأل (ميتران) ضيفه عن إقامته وما إذا كانت مريحة ..

ـ « هل هناك شىء معين خارج البروتوكول يمكن أن أقوم به لك ؟ »

فكر (مانديلا) قليلاً كأنما هو متردد ، ثم قال :

ـ « أريد (سارة) ! »

نظر له (ميتران) فى عدم فهم :

ـ « (سارة) من ؟ »

ـ « (سارة بارتمان) .. »

ثم بلهجة تجمع بين الإقناع والرجاء أردف :

ـ « أتمنى لو عدت بها إلى وطنى ! »

* * *

الزحـــام

سيارته معطلة ..

ومنذ متى لم تكن سيارته كذلك ؟ الحقيقة أن (أشرف) صديقى بدأ يدرك الحقيقة المروعة : لقد صار التخلص من هذه السيارة الـ (١٢٤) المرعبة أمرًا واجبًا .. لم يخطر له هذا من قبل حتى فى أسوأ كوابيسه .. كما قلت سابقًا تعد السيارة فى مصر كائنًا أبديًا ، ومهما حدث لها فهناك دومًا الأسطى (رمضان) الذى يعرف كيف يعيدها لحالها .. لكن يبدو أن الأسطوات (رمضان) قد شاخوا أو ماتوا .. سيكون عليه التخلى عن رفيقة عمره هذه التى تحملته أيام الدراسة بالكلية وما بعد التخرج ..

زوجته (مها) قالت له إن هذه ليست سيارة لكنها (عشة) دجاج .. وقد جعله هذا يقارن بين السيارة وزوجته .. زوجته التى لم يعرفها بعد بشكل كاف ، ولم تقدم له بالتأكيد عُشر ما قدمته هذه السيارة الباسلة ..

نسيت أن أخبركم .. لقد تزوج (أشرف) ، وزوجته تنتظر طفلهما الأول فى أغسطس القادم .. إنه يزداد صلعًا وبدانة ومرحًا ، لكن مشاكل الحياة بدأت ترسم علاماتها على جبينه وحول عينيه ..

الآن السيارة عند الأسطى (سيد) منذ ثلاثة أيام ، ومن الواضح أنها ستظل هناك فترة أطول .. هكذا وجد نفسه مضطراً إلى ركوب سيارات الأجرة .. هو تصرف لا يختلف كثيراً فى نظره عن ارتياد الحانات .. عمل غير أخلاقى لا يمارسه المرء إلا مضطراً ، ومن الخير ألا يراه أحد يفعلها ..

فى سيارة الأجرة التى راحت تشق طريقها عبر شوارع المدينة المنهكة ، راح ينظر لساعته قلقاً بصدد اللحاق بذلك الموعد فى (المهندسين) ..

(أشرف) يستعد للسفر إلى دولة عربية للعمل .. أعنى بالطبع دولة غير مصر .. لقد تزوج ، وبالتالى وجد أنه لم يعد يملك مليماً .. حاول أن يتناسى نبوءة (مالتوس) المرعبة التى تقول إن الرجل حينما يتزوج يهبط مستواه الاجتماعى طبقة ، وعندما ينجب يهبط طبقة أخرى حتى يجد نفسه مضطراً لمخالطة طبقة العمال والحرفيين ! وكان أبوه يقول له فى نبوءة مشابهة : البس قبل أن تتزوج ، وكل قبل أن تنجب !

لكنه الآن ذاهب إلى هذا المستشفى الخاص فى (المهندسين) لإجراء الفحوص اللازمة قبل السفر ..

ثمّة احتمال لا بأس به ألا يكون هنا عندما يصل طفله إلى العالم .. لكن العقود لا تنتظر ..

شارع جامعة الدول العربية .. ميدان مصطفى محمود ..

يطلق سائق التاكسى سبة .. لماذا ؟

إنه ذلك التجمع من الوجوه السود الغاضبة التى قررت الاعتصام هناك احتجاجاً على إهمال مفوضية اللاجئين لمطالبها .. لا يذكر السبب بالضبط لكنه شبيه بهذا ..

زحام .. خيام .. أطفال تصرخ .. ثياب معلقة .. كتب وثياب تباع .. لب .. فول سودانى .. بحر من الفقر والبؤس والغضب ...

ـ « هؤلاء جاءوا ليجعلوا الحياة معقدة أكثر مما هى .. »

يقولها السائق وهو يبصق من النافذة .. كان أسمر اللون مفتول العضلات غارقاً فى العرق والتعاسة ..

ـ « ينشرون الأوبئة ويمارسون عاداتهم القذرة هنا ، والسبب .. لا أحد يعرف .. فقط الكثير من الزحام واحتلال كامل للميدان .. لا أعرف لماذا تصبر الحكومة عليهم ؟ هه ؟ هل تعرف يا أستاذ ؟ »

كان (أشرف) يرمق الميدان شارد الذهن .. فقط تنبه للسؤال فقال :

ـ « لا أعرف .. »

لكن الاشمئزاز كان قد بدأ يزحف على معدته هو الآخر .. المشهد كئيب وقد أنشب مخالبه فى روحه كأنه إخطبوط عملاق مخيف ..

يواصل السائق الكلام :

ـ « نحن بلد فقير .. فلماذا نمنح آخر ما لدينا من لقيمات لهؤلاء ؟ لقد كان هذا خطأ (عبد الناصر) الذى فتح باب مصر لهم .. تصوَّر يا أستاذ أن أرملة (لومومبا) ما زالت تتقاضى معاشًا من الحكومة المصرية ؟ هل تذكر (لومومبا) ؟ »

لم يكن (أشرف) يعرف (لومومبا Lumumba) لكن الاسم بدا مألوفًا ..

مال على السائق يسأله :

ـ « معذرة .. لكن من هو (لومومبا) ؟ »

بصق السائق من جديد من النافذة وقال :

ـ « لا أذكر من هو .. لكن امرأته تتقاضى معاشًا .. هذا خطأ (عبد الناصر) صدقنى .. »

وداس الفرملة ليتفادى رجلاً أفريقيًا ضئيل الحجم يعبر الشارع غير مبال بالسيارات المسرعة ..

ـ « هل ترى ؟ يمكن للأمن أن يخلصنا من هؤلاء فى ثوان .. لكنهم يحجمون .. »

على الرصيف المقابل كان شاب أسود فارع الطول يشير للسيارات فى لهفة ، فمال السائق على اليمين ليسمع ما يقوله بلسان شبه أجنبى .. ثم أوقف السيارة على حين انطلق الفتى يركض ليلحق بها ..

انفتح الباب وجلس الفتى فى المقعد الخلفى يلهث .. أصلع الرأس عملاق . يلتفت (أشرف) ليتأمله ..

الجلد الناعم البراق كأنه من معدن أسود صقيل .. المنخران العملاقان يعبان الهواء فى جشع .. لون بياض العينين أصفر .. قميص واسع مشجر الألوان .. للمرة الأولى يدنو (أشرف) من أفريقى لهذه المسافة وقد بدا له غريبًا .. أقرب إلى وحش برى يحاول السيطرة على انفعاله بصعوبة ..

ـ « من أين أنت ؟ »

سأله السائق بصوت عالٍ وهو يرمقه فى المرآة ، فلم يقل الفتى شيئا .. فقط ازداد توترًا وراح يرمق الشوارع بعينين واسعتين لا تثبتان فى محجرهما لحظة ..

قال السائق لـ (أشرف) :

- « هل ترى ؟ لا يفقه شيئًا .. إنه مجرد قرد انتزعوه من الأشجار وألقوا به وسط (المهندسين) .. كأن هذا ينقصنا .. »

الحق أن (أشرف) وجد هذا الكلام معقولاً ..

الفتى يعبث فى أنفه شاردًا ، فيقول السائق :

- « أوف .. يا للقرف ! »

كان المستشفى الذى يقصده (أشرف) قد اقترب ، فطلب من السائق أن يتوقف هنا ونقده ماله .. فقط وهو يغلق الباب لمح الفتى ينظر له بعينين متسعتين ثابتتين من النافذة الخلفية ..

هذا الفتى يفهم العربية جيدًا .. لا شك فى هذا .. قالها لنفسه وهو يقف على الرصيف بينما السيارة تبتعد .. معنى هذا أنه فهم كل ما قاله السائق ..

لكن لا وقت لهذه الخواطر .. إن لديه مشاكل جادة الآن ..

* * *

عندما جاء المساء كان (أشرف) منهكًا بحق .. لقد كان يومه طويلاً للغاية ..

كانت زوجته قد غابت فى نعاس عميق وهى جالسة فى الصالة أمام التلفزيون .. يدها على بطنها وأنفاسها ثقيلة .. الحق أنه ما من حالة فسيولوجية أقرب إلى المرض من الحمل .. معاناة لا يمكن وصفها .. وهن على وهن لا يمكن لعقل رجل أن يتصوره ، لهذا يمكنه فهم مكانة الأم المتميزة .. قرر أن يوقظها لتدخل الفراش ، لكنه صمم على أن يجلس إلى الكمبيوتر أولاً .. يجب أن ينهى هذا العمل سريعًا قبل أن يقهره النعاس بدوره ..

إنه بحاجة إلى أن يرسل رسالة إلكترونية لصديق عمره (علاء عبد العظيم) .. هذا الوغد المشاكس الملتحى ..

بإصبع مرتجفة .. وبكثير من الصبر يتناسب مع حداثة عهده بهذا الجهاز اللعين ، بدأ يكتب خطابه بإنجليزية كسيحة .. مستخدمًا طريقة الفرانكو آراب المزعجة الشهيرة على غرار salamo 3alaikom و besara7a ..

« عزيزى علاء ...

« كيف الحال ... ؟ »

* * *

عزيزى أشرف :

سررت حقًا لتلقى الرسالة .. برغم هذه اللغة الغريبة التى تكتب بها ، والتى تجعلنى أضطر لقراءة الرسالة سبع مرات .. إما أن يكتب المرء بالعربية أو الإنجليزية لكن لا أقدر على فهم هذه اللغة العجيبة والتعبيرات على غرار nel3ab ma3a el 2sad .. لكنى سررت أكثر لما علمت أنك موشك على السفر .. إن هذا السرور خليط من بهجة خالصة لأنك سوف تتخلص من ورطتك المادية المزمنة ، ولذة سادية لأنك ستجرب الغربة مثلى وتترك زوجتك .. لكنى بما أعرفه عن طبيعتك لا أتوقع أن الغربة ستثير فى نفسك ما تثيره فى نفسى من ألم .. كنا نقول دومًا إننى حساس مرهف وإنك عديم الإحساس .. يبدو أننا كنا بعيدى النظر .. لاحظ أن غربتى مزدوجة وفريدة ذات بعدين .. غربة عن وطنى وغربة عن البلد الذى صار وطنًا ثانيًا ..

الحق إن هذه الغربة تثير خواطر غريبة فى النفس ، وقد تدفعك لاتخاذ أكثر القرارات جنونًا .. أنت هش نفسيًا لهذا يمكن أن تنزلق لأى شىء ..

لكن دعنا من هذا الموضوع الذى يثير الكثير من الشجن فى نفسى .. قل لى ما هى أخبار أسرتى ؟ ما الذى يخفونه عنى ؟ ما أخبار أسرتك ؟ لقد كبرنا كثيرًا يا (أشرف) .. طالبا المدرسة الإعدادية اللذان كانا يجلسان فى الصف معًا .. بدأنا الشجار على أعداد (المغامرون الخمسة) ثم كبرنا نوعًا فبدأنا الشجار على أعداد (رجل المستحيل) .. تصر أنت على أنك لم تقترض إلا خمسة أعداد بينما أصر أنا على أنك اقترضت سبعة .. الكلية .. سيارتك الأسطورية المرعبة التى كنت مستعدًا أن تجوب بها القاهرة ست مرات يوميًا .. والناس ينظرون إلى كتلة الخردة هذه التى ما زالت تتحرك .. كانوا يقولون لبعضهم : يحيى العظام وهى رميم .. كأن سيارتك جاءت لتقوّى إيمان الناس بالبعث وقيام الساعة ..

كبرنا يا أشرف .. صارت لنا زوجتان ، وهأنذا أعمل فى طرف العالم مع قبائل لا أستطيع أن أنطق اسمها .. هل تحسبنى أمزح ؟ حتى اليوم لم أستطع نطق اسم (آما خوسا) بشكل صحيح .. لابد من أن تنطقه بطرقعة باللسان على مؤخرة الأسنان كأنك لا توافق

على شىء ما ، وهو ما يكتبه الغربيون Tut tut ونكتبه نحن (تو) .. هناك ـ فاعلم ـ ثلاثة أنواع من الطرقعة : طرقعة أمامية تحدثها بأن تضع اللسان خلف الأسنان وتطرقع .. طرقعة علوية : أثناء نطق حرف O طرقع بطرف لسانك على سقف فمك .. هناك طرقعة جانبية تبدو كصوت فتح سدادة الزجاجة .. ..

كبرنا يا (أشرف) وسرعان ما ننجب ونشيخ ونتوكأ على عكاز . ثم نموت ..

أمارس عملى فى وحدة (سافارى) التى تقع قرب (ديربان) .. عملى متنوع لكنى أقضى أكثر الوقت فى الجراحة كما تعرف .. كونت مجموعة صداقات لا بأس بها ، وأخص الخطيبين الروسى (فاسيلى سيمياكوف) والإيطالية (سيمونيتا ألبرتينى) .. (سميث ماكفادين) الأسكتلندى الظريف .. (مادلين) الطبيبة الفرنسية الرقيقة التى تذكرنى بـ (برنادت) كثيرًا .. كاد الروسى يفقد حياته فى حادث سطو مسلح تعرضنا له ، لكنه تعافى سريعًا .. إن البلاد هنا رائعة الجمال ، لكنها كذلك شديدة الخطر .. أتمنى أن أرى بلدًا أفريقيًا واحدًا مستقرًا .. حقًا لا أفهم السبب .. بعض الغربيين أصدروا حكمًا غير قابل للاستئناف

أن الأفارقة يتمتعون بمعدلات ذكاء IQ منخفضة .. هناك عالم اسمه (سيريل بير Burt) قضى حياته ينشر أبحاثًا خلاصتها : أن مستوى ذكاء السود منخفض (هناك أبحاث مماثلة بصدد العرب بالذات) ، على أن الرجل توفى أخيرًا فأعلن مساعده أن كل دراسات أستاذه كانت ملفقة .. المشكلة أن الغربيين ينسون هذا الاعتراف ولا يتذكرون إلا الأبحاث نفسها ..

أحيانًا ما يقابل المرء معضلة حقيقية تتحدى (سيريل) هذا .. مثلاً جاء إلى الوحدة منذ فترة طبيب أفريقى حاد الذكاء يدعى (فيليب مبيكى) .. إنه من (الخوسا Xosa) .. أو بعبارة أدق من (الخوسا) الذين اختلطوا بجنس آخر هو (خوى خوى Khoi khoi) .. هل يبدو كلامى غريبًا ؟ أعرف هذا .. أنا نفسى كنت أندهش من هذه الأسماء فى البداية ، ثم صرت أنطقها بنفس السهولة التى تتكلم بها أنت عن الإسكندرانية والمنايفة والبحاروة ..

كنت أتخيل (الخوى خوى) ـ أو (الهوتنتوت) ـ كما رأيتهم فى (ديربان) مجرد رجال بدائيين لونهم زيتونى ولهم عيون غائرة وقامات فارعة يثبتون فى شعورهم بعض القواقع .. مرحون مسرفون قذرون ... أرقى من

(البوشمن) لكنهم أقل تحضرًا من (الزولو) و(البانتو) .. لكن ما وجدته هنا يختلف ..

(فيليب) طبيب لأمراض باطنية ، وهو شاب نحيل أسمر له عينان حزينتان صغيرتان ، وبشرة سمراء زيتونية .. إنها ملامح (الخوى خوى) كما حفظتها منذ جئت هنا .. وقد قدم عدة طلبات للسماح له بالالتحاق بالوحدة ويبدو أنه استعان ببعض الصلات القوية فى (كيب تاون) .. لم أدر أن وحدتنا مرموقة إلى هذا الحد ..

منذ البداية فوجئت بمستواه البارع .. لقد درس فى (كيب تاون) على أيدى أساتذة بريطانيين .. إن لجنوب أفريقيا ثلاث عواصم .. اقتصادية فى (جوهانسبرج) .. وتشريعية فى (كيب تاون) .. وإدارية فى (بريتوريا) ، لكن (كيب تاون) عاصمة علمية كذلك ..

أضاف (فيليب) لهذا قبسًا من العبقرية الوهاجة .. عبقرية كالتى يظهرها العرب عندما يعملون فى الغرب ، وهذا جعل منه كيانًا متميزًا بحق .. من الصعب أن يقابل المرء طبيبًا باطنيًا بارعًا لهذا الحد لذا التصقت به قدر الإمكان وتعلمت منه الكثير ...

إنه غامض صموت .. لكنك ترى نوعًا من الحزن النبيل فى ملامحه ، أحيانًا يتحور إلى غضب مجنون مكبوت .. وقد أدركت على الفور أنه لا يحمل للبيض أية مودة .. إن علاقته بنائبة المدير (هانا فان بيردن) سيئة إلى درجة غير معقولة .. بينى وبينك أنا كذلك لا أستريح لهذه السيدة .. لا أعرف سبب علاقتى السيئة بأى نائب مدير أعرفه ، لكنها الحقيقة ..

سألته عن قومه فقال بابتسامة مريرة :

ـ « ماتوا .. ذابوا .. تلاشوا .. لم يبق منا سوى بضعة آلاف .. »

لم أرد أن أطيل الكلام حول هذه النقطة ، فقد شعرت على الفور أنه لا يرغب فى الإطالة .. لكنه أدرك أننى مفتوح العقل والعينين على كل شىء وإننى نهم للمعرفة ؛ لذا اتخذنى صديقًا إلى حد ما ..

فى الواقع كان يعرف الكثير عن إسرائيل ومشكلة الفلسطينيين .. وقد راح يحكى لى قصة الهولنديين مع القبائل فى جنوب أفريقيا .. ذات السيناريو تقريبًا .. فى وقت ما لم يكن فى العالم كله سوى حكومتين تمارسان التفرقة

العنصرية ، هما إسرائيل وحكومة الأبارتايد Apartheid فى جنوب أفريقيا ... لكن السيناريو فى جنوب أفريقيا كان أسرع .. سرعان ما تكاثر السكان السود إلى أن وجد البيض أنهم أقلية محاصرة مذعورة ، ثم سيطر السود على مقاليد الحكم وعادت البلاد لهم ..

إن هذا هو ما يدعوه الإسرائيليون بـ (القنبلة الديموجرافية) ، وهى أخطر بمراحل من القنبلة الذرية .. لا تنس أن خصوبة الفلسطينيين عالية وأنه يوم يموت واحد من الفلسطينيين قد تنجب أم فلسطينية أربعة توائم .. هذا حدث فعلا مرارًا ..

قال لى فى حزن :

ـ « لكن الأمر فات بالنسبة لقومى .. لقد هزم البيض لكن لم يعد هناك (الخوى خوى) .. ما تبقى منهم عينة تاريخية ثمينة ، لكن لا قيمة لها كشعب مؤثر .. »

ثم سألنى فى نوع من الاستمتاع بجهلى :

ـ « هل تعرف سبب وجود المسلمين فى هذا البلد ؟ »

كنت أعرف أن المسلمين هنا يشكلون ٢٪ من السكان .. أى حوالى أربعين مليونًا ..

قلت فى ارتباك :

ـ « إنهم المهاجرون من آسيا و ... »

ـ « هراء ! ... مهاجرون ؟ إن الهجرة الأولى بدأت فى القرن السابع عشر وكانت إجبارية .. لقد جاء الهولنديون بالعبيد من أفريقيا وآسيا وكان أكثرهم مسلمين ... هؤلاء فضلوا البقاء فى الكيب بعد رحيل الهولنديين وهم نواة المجتمع الإسلامى هنا .. بعد هذا جاء البريطانيون بعمال كثيرين من الهند هم المسلمون الذين استقروا فى الناتال .. أى إن المسلمين جاءوا هنا كنموذج لاستغلال الأوروبيين للأمم الأخرى ، ثم صاروا جزءًا من نسيج البلاد .. »

أعتقد بشكل ما أن هذا الرجل يخفى الكثير مما سأعرفه فيما بعد ..

فقط أعتقد أنه أهم ما حدث لى منذ جئت هنا ..

* * *

عزيزى أشرف :

هل سافرت أخيرا ؟ أرجو أن تروق لك الحياة هناك .. أعرف كل ما تنوى أن تقوله فلا داعى للصراخ .. كل شىء غريب وغير معتاد .. فقط فى هذه اللحظات سوف تتذكر كم كان طعم الفول المدمس شهيًا ، وكيف أنك تحبُ زحام شارع (صلاح سالم) ، وكيف أن الحياة بلا محلات كشرى مستحيلة .. لكن احمد الله على أنك فى بلد يتكلم العربية ويفهمها .. لو أضيف (الحرمان السمعى والكلامى) إلى ما تعانيه لوجدت نفسك فى كارثة حقيقية ، وهذا ما مررت به بالضبط .. لكنى اعتدت ذلك .. ليس هناك وضع لا يمكن اعتياده .. تذكر كلمات (ألبير كامو) فى قصة (الغريب) عن أنك لو سجنت فى برميل لرحت تتسلى بمراقبة السحب التى تمر فى السماء فوق رأسك .. سوف تعتاد ما أنت فيه ، لكن لا توجد وصفات سحرية لذلك .. كن مرهقًا ومنهكًا جدًا .. ادخل فراشك حينما تعوى كل مفاصلك ألمًا ويزن رأسك طنين .. هكذا تنام بلا مشاكل ولا تساؤلات عما يحدث فى الوطن .. نقطة أخيرة يجب

أن تقنع نفسك بها : هؤلاء الذين تركتهم فى الوطن يستطيعون العناية بأنفسهم من دونك .. أنت لم تكن جوهريًا لحمايتهم من الزلازل والبراكين وعصابات السفاحين .. سوف تسير الحياة من دونك ، وربما تسير أفضل .. هذا يدمى كبرياءك لكنه يريحك ...

بالنسبة لما يدور هنا فلا جديد ..

حدثت مشادة عنيفة بين نائبة المدير وذلك الطبيب الأفريقى الذى حكيت لك عنه .. لقد اختصته بعدد كبير من النوبتجيات .. واضح أن هذا نوع من التحرش ولو كنت مكانه لتجاهلت الأمر ، لكنه هرع إلى مكتبها وقال فى حزم :

ـ « لا أستطيع أن أتخلى عن مساء الثلاثاء .. »

نظرت له فى ثبات وقالت بصوتها المبحوح الأجش :

ـ « هل من أسباب قوية لذلك ؟ »

قال فى تهذيب فظ (لو كنت تفهم معنى هذا) :

ـ « لابد لى من زيارة قومى فى (ناماكوالاند) .. هذه هى الزيارة الأسبوعية .. »

قالت وهى تجلس إلى مكتبها :

ـ « لا تعنينى مشاكلك الأسرية يا بنى .. العمل هو العمل .. »

ـ « يمكنك أن تجدى من يأخذ هذه النوبتجية سواى .. إن لديك عددًا هائلاً من الأطباء الأوروبيين .. »

ـ « لكنى اخترتك أنت .. »

قال فى حزم :

ـ « لن أنفذ هذا الأمر .. »

ـ « أنت حر .. وكذلك أنا .. »

نظر لها فى عينها وقال فى ثبات :

ـ « أنا أفهم غرضك جيدًا .. وأعرف أنك لا تريدين شيئًا قدر إذلال طبيب من الخوسا .. لا علاقة لهذا بالعمل ولكن بالصفات الشخصية .. سوف أشكو الموضوع إلى المدير .. إن د. (بالينجا باليا) سوف ينصفنى .. »

ـ « أتمنى أن تقابله فى أسرع وقت .. »

ثم فتحت أوراقها وراحت تدون أشياء لتثبت له أنها غير مبالية بما يقول .. نظر لها طويلاً ثم غادر المكتب قاصدًا مكتب المدير ..

لا أعرف ما دار فى تلك المقابلة لكنه كان مقتنعًا كما هو واضح .. فقد انتهت المشكلة عند هذا الحد وظفر بإجازة الثلاثاء، وفيما بعد قالت الطبيبة الهولندية شيئًا على غرار :

ـ « هؤلاء السود يفهمون بعضهم البعض .. لن ينصف طبيبًا من الخوسا إلا طبيب من الزولو .. كلما حاول المرء أن يكون حازمًا اتهموه بالعنصرية والتحرش .. »

لكن هذه الأشياء كانت تقال سرًا بالطبع ؛ لأن الزمن السعيد الذى كان فيه الهولنديون هم السادة قد ولى للأبد . إن ما قالته المرأة ليس إلا نوعًا من (البرطمة) كما نسميها فى العامية المصرية، ولن تغير من الواقع شيئًا ..

سألت (فيليب) عن سبب اهتمامه بيوم الثلاثاء إلى هذا الحد، فقال إنه يجب أن يقابل أهله .. إن قريته هناك قرب (ناماكوالاند Namaqualand) على ضفاف نهر (جامتوس) .. ثم أضاف بلهجة ذات معنى أنه يزور قبرًا عزيزًا عليه بشكل خاص ..

لم أسأله عن تفاصيل لكنى خمنت القصة .. حبيبته الرقيقة السمراء التى لفظت أنفاسها الأخيرة فى يوم ثلاثاء .. هكذا صار عهدًا مقدسًا أن يكون هناك فى ذات اليوم .. ربما ذات الساعة .. لا شك أن القصة هكذا .. رومانسية بلهاء ، لكن كلاً منا يملك ذات القدر من البلاهة ، ومن دونها تصير حياتنا جافة كأعواد القصب الملقاة جوار أية معصرة تحترم نفسها ..

صحيح .. لماذا لا يتكلم (فيليب) عن الفتيات أبدًا ؟ إنهن لسن فى عالمه على الإطلاق .. كأنه لم يفطن بعد لحقيقة أن العالم يتكون من ذكور وإناث ، أو كأن الزواج لم يخترع بعد .. هذا جزء لم أفهمه ..

لم أفهمه إلى أن ظهرت (مادلين) فى الصورة....

(مادلين كوفييه) الطبيبة الفرنسية الحسناء الثرية التى تذكرك بـ (برنادت) .. إنه معجب بها وهذا واضح لكل ذى عينين .. الآن أفهم وأقدر أن هذا الفتى يملك عينين وهرمونات ذكرية تؤدى عملها ..

لكنى لا أعرف الطريقة التى سيبلغ بها هدفه .. إنها من أسرة فرنسية عريقة .. ولا شك أنها تمثل مطمحًا

للكثيرين هنا ، بينما من الصعب أن يفوز بها طبيب عصامى من (الخوسا) مهما بلغ من براعة .. لكن .. ربما كان هذا هو الحل .. على الأرجح سيفوز بها لأنه من (الخوسا) .. إنه فريد من نوعه ، بينما يلتف حولها طيلة الوقت هؤلاء الأطباء الأوروبيون شقر الشعور متوردو البشرة زرق العيون .. كلهم يتشابهون ولا شك أنها سئمتهم جميعًا ..

وسط هذا الطوفان الأوروبى الباهت يظهر (فيليب) فريدًا غريبًا عظيم الكبرياء ..

لأسباب كهذه اختارتنى (برنادت) أنا لأننى بدوت مختلفًا ..

لا أعرف إلام ستسير الأمور .. فلننتظر ولنر ..

* * *

عزيزي أشرف :

كيف حالك ؟

أمس حدث شيء غريب .. كنت أقوم بجولة في البلدة المجاورة ، وعدت ليلا .. وجدت زحامًا وفوضى عامة وسيارتي شرطة ..

شققت طريقي وسط هؤلاء باحثًا عن دخان الحريق ، لكن لا حريق هنالك .. أبحث عن وجه واحد مألوف .. كان هذا الوجه هو وجه الإيطالية (سيمونيتا البرتيني) .. كانت تقف هناك لابسة معطفها الأبيض ، وهي تتحدث في هاتفها المحمول بالإيطالية .. سيل من حروف الواو والياء ينهمر من شفتيها ليغرق كل شيء .. حينما رأتني لوحت بيدها موحية ..

وقفت جوارها أرمق الزحام ، وأنتظر حتى تنهي المكالمة ، ثم سألتها :

- « كم طبيبًا مذبوحًا وجدتموه ؟ »

قالت ضاحكة ، وهي تدس الهاتف في جيبها :

- « ليس لهذا الحد لكنك اقتربت جدًا .. إنه رئيسك المباشر .. »

- « د. باليا ؟ »

- « بل أعني رئيسك المباشر فعلاً .. د. (ماكفادين) .. الأسكتلندي .. هناك من تحرش به وقد تلقى علقة ساخنة .. »

- « هل هو ... ؟ »

- « تهشم له ضلعان .. أنف مكسور .. لا أعرف إن كنت تعتبر هذه أخبارًا سارة أم مقبضة ، لكنهم وجدوه ملقى جوار الرصيف والدم يسيل من أنفه وقد جاءوا به هنا .. »

هذا الأسكتلندي الظريف أحمر الوجه الساذج نوعًا .. من الذي يمكن أن يتحرش به ؟ إنه مثل (شارلي شابلن) و(ميكي ماوس) . الكل يحبه ولا أعداء له .. لكن من قال إن (شابلن) كان بلا أعداء ؟ لقد تحرش به مكتب التحقيقات الفيدرالية FBI حتى (طفش) من الولايات المتحدة ، و(ميكي ماوس) كان يعتبر عارًا في الصين .. إذن حتى (ماكفادين) يمكن أن يكون له أعداء ..

هكذا شققت طريقى إلى أن وجدت (ماكفادين) نائمًا على محفة وجراح أنف وأذن يعنى بأنفه .. يبدو أنه سيحتاج إلى جراحة .. الظريف فى الموضوع هو أن أنفه ازداد احمرارًا وكنت أحسب هذا مستحيلا .. مددت يدى أعتصر يده كناية عن المساندة فصرخ ألمًا .. يبدو أنها لم تكن سليمة بدورها ..

كانت القصة بسيطة جدًا .. كان يقوم بجولة فى البلدة مثل التى أقوم بها .. دنا منه اثنان من الأهالى وانتهزا فرصة أن المنطقة كانت مقفرة ، ووجه أحدهما لكمة إلى أنفه .. ثم ركلة تراجع على أثرها للوراء فقط ليسقط فوق ثالث كان يجلس القرفصاء وراءه ، كما كنا نفعل فى فناء المدرسة الابتدائية ..

هكذا انهال الثلاثة عليه ضربًا وركلاً وصفعًا ، ثم أفرغوا ما فى جيبه وولوا الأدبار ...

عندما يتحرش بك ثلاثة أفارقة وهبهم الله سعة فى الصحة والقوة ، فإن ما يصيبك يكون أكثر من الجراح النفسية ..

بصعوبة قال (ماكفادين) للمارة الذين تجمعوا حوله إنه من وحدة (سافارى) وإنه بحاجة إلى أن يتصلوا

بها .. آى ! لا تحاولوا تحريكى لأن هناك ضلعًا محطمًا كما هو واضح ..

كانت القصة عادية .. أنا نفسى مررت بها حرفيًا من قبل .. وأذكر ما قاله لى المدير فى لقائنا الأول : هناك ٢٣٠٠٠ حادث قتل وسطو وسرقة فى العام الماضى فقط .. إن من يدخل فراشه ليلاً دون أن يتعرض لتهشيم أنفه هو إنسان محظوظ ...

على أن هناك نقطة لم تبعث الراحة فى نفسى ، قالها لى ونحن فى قسم الأشعة وهم يطمئنون على حالة رئتيه :

ـ « لقد سألونى إن كنت د. (ماكفادين) من وحدة سافارى ! »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « نعم .. أرادوا أن يعرفوا إن كنت أنا هو أم لا ! »

واضح أنه كان هو .. كل جزء فى جسده يشى بأنه كان هو!

* * *

كان رأى المدير عندما عرف تفاصيل القصة عبقريًا ويمكن تلخيصه كما يلى :

- « هذه عملية سطو .. »

لكن نائبة المدير قالت في عصبية وهي تضع قبضتيها في خصرها :

- « لكنهم سألوه عن اسمه .. هذه عملية مدبرة .. كانوا يبحثون عنه هو بالذات .. »

عاد المدير يميل على الطبيب الذي ثبتوا ضمادات على أنفه فبدا مضحكا كمهرجي السيرك وسأله :

- « هل لك أية عداوات مع أهال هنا ؟ هل يكرهك أحدهم إلى هذا الحد ؟ »

قال (مكفادين) بصوت أخنف جعل لكنته الأسكتلندية مستحيلة الفهم :

- « إنهم لا يهيمون بي حبًا .. لكن لا يوجد من يتمنى قتلي .. »

تبًا لأسلوب (المخافضة) الغربي هذا ! لو كان عربيًا لقال (لا) ولانتهى الأمر ..

عدت أسأله من جديد :

- « أنت واثق من أنهم ضربوك لأنهم عرفوا من أنت ؟ »

- « كما أعرف يقينًا أنك (عمر عظيم) .. »

ككل الغربيين يصر على حذف (عبد الـ) عندما ينطق اسمًا عربيًا مُعبدًا .. دعك من أنه ما زال يصر على أنني (عمر) .. هذا الفتى واثق مما يقول فعلا ..

لكن لا مشاكل خطيرة هنا .. إن الأنف سيلتئم كما يعرف كل ملاكم ، والأضلاع تعرف كيف تعتني بنفسها .. ما دامت لم تثقب الرئة فلا يحتاج الأمر إلا إلى ضمادة لاصقة بسيطة ومسكن قوي للألم ..

الحقيقة أنني لا أرى ما يهم في هذا الحادث التافه كي أحكيه ، لكني أشعر بشكل ما أن له قيمة في الأيام القادمة .. فقط سوف نكون حكماء غدًا - إذا عشنا - وننظر بدهشة إلى ما نقوله ونفكر فيه اليوم .. ونتساءل : كيف كنا بهذه البلاهة ؟ لا أكف عن تذكر مقطع شعر لنزار قباني يقول :

« أتلو رسائلنا فتضحكني .. أبمثل هذا السخف قد كنا ؟ »

نعم .. بمثل هذا السخف وربما أسخف .. والدليل هو خطاب قديم لك عندي تقول فيه بوضوح : لن أسافر خارج مصر مهما حدث ومهما تغيرت الظروف ..

تحياتي لك وأنت تبدأ أسبوعك الثالث في الغربة !

* * *

عزيزى أشرف :

تضايقت كثيرًا من رسالتك السابقة التى تحكى لى فيها عن رب العمل ومشاكلك معه .. تقول : إنه يعاملك بتعالٍ غريب كأنك عبد لديه .. تلك النظرة التى ينظر بها السادة إلى خادمهم .. فى الحقيقة يا أشرف لا أجد غرابة فيما تقول ، فكلنا نفس الرجل إذا أتيحت له الفرصة .. المشكلة أننا ننظر إلى أنفسنا نظرة تقدير لا نستحقها .. نحمل لذواتنا صورة لا حظ لها من الحقيقة .. كلنا نتعالى على من هم أقل منا ونشعر بأنهم بشكل ما مسئولون عما هم فيه ..

كان لى صديق مصرى يعمل فى شركة اتصالات ، وكان لا يكف عن الشكوى من معاملة رئيسه الألمانى له .. منتهى السماجة والتعالى والسخف .. ثم إننى قابلت صديقى المصرى هذا مع زوجته فى سوبر ماركت شهير .. كانت معه طفلته وخادمة فلبينية شابة تعسة .. فلبينية لأن هذه هى الموضة حتى لو كان راتبها يلتهم راتبك .. كانت الخادمة ترمق ثلاجة الآيس كريم باشتهاء بينما ابتاع صديقى ثلاث قطع شهية من

الآيس كريم له وزوجته وابنته ، وراحوا يلتهمونها أمام الفتاة الجائعة .. رأيت كيف تعاملها زوجته مستعملة تعبيرات أكثرها رقيًا هو (يا زفتة) .. رأيت كيف يصفها بالغباء فى كل لحظة .. رأيت طفلته وكيف تهينها وتوبخها طيلة الوقت .. مزقت قلبى فكرة أن هذه الفتاة جاءت من طرف العالم الشرقى الجنوبى لتعيش مع أسرة لا تفهم لغتها .. وتعاملها بهذه الكراهية .. هى بالتأكيد لم تسمع حرفًا من لغتها منذ أشهر .. بالتأكيد لها أم وإخوة صغار ترسل لهم راتبها كله أول الشهر فلا يبقى معها مليم يكفى لقطعة آيس كريم ..

عندما رأيت هذا الموقف ابتسمت فى خبث .. فقط ابتعت للفتاة قطعة آيس كريم أمام نظرات صاحبى الغاضبة .. وقلت له :

ـ « أعتقد أنك تفهم الآن أن رئيسك الألمانى لم يفعل إلا ما يفعله سواه فى موقفه .. »

أحيانًا يُخيَّل لى أن الحياة سُلَّم من الاضطهاد والتعالى .. كل واحد يهين من هو تحته ويتمنى الصعود درجة لمن هو فوقه..

نفس الشيء ينطبق على معاملتنا للحيوانات العجماء .. ذات مرة حكى لي عامل في المستشفى الذي كنت أعمل به في مصر كيف أنه تخلص من ثلاثة كلاب صغيرة ، عندما وضعها في كيس قماشي أحكم غلقه وأغرقه في الترعة (على سبيل المرح) .. كانت عيناه تلمعان ، وهو يستمتع بكونه ظريفًا إلى هذا الحد .. ساعتها دعوت الله أن يخلق كلبًا في حجم ناطحة السحب أو (جودزيلا) ليربط هذا العامل وأولاده في كيس ويغرقهم في النيل ..

« لماذا أؤذيك ؟ لأنك أضعف مني » .. هذه هي المقولة التي نعيش جميعًا عليها وبها ..

* * *

ولكن دعنا من هذه الفلسفة ولأقل إن عليك أن تتحمل .. ليس بوسعك أن تجعل رئيسك كما تشتهي ..

بالنسبة لي لا توجد مشاكل .. أقول : بالنسبة لي .. أما بالنسبة للآخرين فهناك الكثير منها ..

هناك اعتداء قد وقع على طبيب نيوزيلندي ..

لقد كان عائدًا بسيارته إلى الوحدة عندما وجد الطريق مسدودًا .. هناك شجرة عملاقة تسد الطريق .. طبعًا أطلق سبة وترجل كي يفهم ما هنالك ..

في هذه اللحظة انقضّ عليه ثلاثة رجال .. لم يوجهوا أسئلة ولم يكلفوا خاطرهم بتقديم أي تفسير .. فقط انهالوا عليه ركلاً ولكمًا .. سقط على الأرض محاولاً فهم ما يحدث ، لكن المرح لم يكن قد انتهى .. لقد ربطوه بحبل إلى سيارته وقادها أحدهم في الطريق المعاكس وهو يصدر صيحات صاخبة ضاحكة .. وكما قال الطبيب فإن هؤلاء الأوغاد يجيدون القيادة .. لقد انطلقت السيارة بينما ذلك الطبيب يضرب بجسده كل حجرٍ وكل نتوء في الأرض ..

لكن غرضهم لم يكن القتل كما هو واضح .. سرعان ما ركض أحدهم ، وقطع الحبل وغادروا السيارة والرجل ..

فيما بعد تمكن هذا الطبيب البائس بمعجزة ما من الوصول إلى الوحدة ..

كان ما قاله هو :

- « لا توجد علامات تميِّزهم .. إن السود يتشابهون بالنسبة لغربي مثلي .. فقط كانوا يتكلمون بلغة فيها الكثير من القرقعة باللسان .. »

بالطبع هذا لا يفيد لأن أكثر اللغات هنا تستعمل القرقعة .. لكن (الهوتنتوت) بالذات لهم سمعة خاصة فى هذا الصدد حتى إن لفظة (هوتنتوت) الهولندية معناها (المتلعثمون) .. لهذا يعتبر السود هذا الاسم إهانة .. (الخوسا) يستعملون القرقعة بكثرة .. هناك بعض لهجات الزولو تستعملها ..

- « هل لك أعداء ؟ »

- « بالطبع لا .. »

- « هل استلبوك شيئًا ؟ »

- « لم يكن هناك وقت لذلك"

على كل حال سادت وحدة سافارى حالة من القلق .. هذا ثانى طبيب يتم الاعتداء عليه خلال أسبوعين .. هل يحمل الأمر رائحة ما من التحرُّش والترصُّد ؟

كما لك أن تتوقع زادت دوريات الشرطة حول الوحدة ، وصدرت تعليمات صارمة للأطباء بالاحتراس ... لا داعى للعودة فى ساعة متأخرة .. لا تركبوا مع الغرباء .. لاتزوروا السود .. لا ....

الواقع أنه من المستحيل أن تكون حريصًا أكثر من اللازم كما يقول الغربيون .. You cannot be too careful هناك دائمًا خطأ سوف ترتكبه ، ويجعلك تتلقى علقة مماثلة ..

كانت (هانا فان بيردن) اللعينة واضحة وصارمة :

- « إنهم السود يتحرشون بالبيض .. هذه لعبة العنصرية المضادة فى أوضح صورها .. »

قال لها المدير مغتاظًا :

- « لا يوجد ما يدل على أنهم يختصون البيض بالهجوم .. لقد ولَّت تلك الأيام يا دكتورة (فان بيردن) .. »

- « ضحيتان من البيض حتى الآن .. الأمر واضح .. »

لهذا استدعانى المدير إلى مكتبه وأعطانى إجازة بعد الظهر لهذا اليوم وباقى الأسبوع .. سررت جدًا لهذه المعاملة الكريمة .. فقال لى فى مرح :

- « لا تضيع وقتك هنا .. حاول أن تخرج وتستمتع بوقتك ! »

خرجت من عنده مسرورًا ممتنًا وأخبرت (ماكفادين) بكل هذا الكرم الذى لا أستحقه ، فقال لى باسمًا :

- « أنت مجرد فأر تجارب يا (عمر) .. لو تمّ الاعتداء عليك وأنت داكن البشرة لكان معنى هذا أن الموضوع لا يتعلق باللون! .. أعتقد أن المدير يتمنى أن تعود له مهشم العظام ممزق الأوصال ! »

يا للغباء ! ... لم أفطن لهذا من قبل ! ... وأنا الذى لا أكف عن اتهام (ماكفادين) بالسذاجة لم أعرف أنه بهذا الخبث ...

فهمت سر كل هذا الكرم .. سيجربون فىّ باعتبارى وافدًا جديدًا لا يشكل خسارة فادحة .. لم أعرف قط أن المدير بهذه القسوة وهذا التفكير العملى ..

- « بالمناسبة .. اسمى (علاء) وليس (عمر) .. »

- « آسف .. أنت تعرف أنكم جميعًا (عمر) بالنسبة لنا .. (عمر الخيام) .. (عمر الشريف) .. حتى عندما نقتبس اسمًا منكم نختار اسم (عمر) .. ماذا عن الجنرال (عمر برادلى) ؟ »

أنا فأر تجارب ؟

لكن لا مانع .. سأجرب حظى .. إن حدسى يخبرنى أن هؤلاء الذين تم الاعتداء عليهم دفعوا ثمن لون بشرتهم ..

وقد أكون مخطئًا ... عندها لن يكون الأمر أسوأ من علقة ساخنة ..

عزيزى أشرف :

ما زالت أمورك سيئة ؟ أتمنى أن أؤمن فعلاً أنك مظلوم ، لكنى لم ألق الكثيرين من المظلومين ضخام الجثة صلع الرءوس فى حياتى ..

حكيت لك كيف إننى قررت أن أستمتع بلعب دور فأر التجارب الذى أعطانيه المدير ، فرحت أخرج فى كل ليلة تقريبًا .. أحيانًا أتجه إلى (ديربان) أو أزور البلدة المجاورة .. فرصة لا بأس بها لشراء كل الأشياء التى تكاسلت عن شرائها ..

طبعًا لا داعى لدخول الأزقة المظلمة فلا يجب على المرء أن يختبر حظه أكثر من ذلك .. إن آثار السكين التى انغرست فى أحشائى ما زالت تذكرنى أين أنا ..

فقط رحت أمشى فى شوارع مزدحمة ، فإذا جاء الليل بقوة عدت إلى (سافارى) وأنا أتوقع هجمة فى أية لحظة ... أسوأ ما فى الأمر هو حينما تنزل من (المينى باص) لتجد أنك وحيد فى طريق تحيط به

الأشجار على الجانبين ، فتمضى وحدك فى الليل فى درب منحدر لأعلى مرهق .. بضع دقائق وترى من موضع مرتفع الوحدة بكل جلالها تسبح فى الأضواء .. إنها لا تنام لحسن الحظ .. هذا يعطيك بعض الأمل ..

هكذا تبدأ الهبوط .. الطريق منحدر مما يعطى مشيتك نوعًا من اللهفة ، وأنت تؤكد لنفسك أنك لن تخاطر ثانية غدًا .. لكنك تعرف أنك مجنون وسوف تفعلها غدًا ..

كنت فى طور الهبوط هذا أمس عندما رأيت ذلك الشبح واقفًا يسد الطريق علىّ ..

وثب قلبى لفمى .. هذا الطريق مقفر ومعنى هذا أنه يجب أن يكون مقفرًا فعلاً .. من المخيف أن تمشى فى طريق مهجور لكن المخيف أكثر أن ترى أحدًا فيه ..

هكذا استعددت للقتال واتخذت وضعًا ممتازًا جديرًا ليكون ملصق فيلمى الأول .. « إنها الحرب .. حرب رجل واحد اسمه علاء .. علاء عبد العظيم » .. أو « اسم الرجل علاء عبد العظيم .. وهو بارع لدرجة لن تصدقها » .. إلخ .. أى شىء من هذا الهراء ..

لقد دنوت أكثر لأفهم أن المعتدى مذعور أكثر منى ومندهش لرؤيتى ...

إنه ...

- « دكتور (فيليب ميبكى) ! »

- « (علاء) ! ماذا تفعل هنا ؟ »

- « وددت لو سألتك نفس السؤال" »

- « أنا ذاهب لبيتى .. »

- « وأنا عائد إلى الوحدة .. »

وعرفت أنه يقيم فى شقة استأجرها تقع على بعد عشر دقائق من الوحدة .. هو لا يقيم فى مسكن الأطباء لأنه لا يناسب عاداته القبلية .. قال لى وهو يتأبط ذراعى :

- « لماذا لا تمضى معى بعض الوقت ؟ إنها فرصة كى ترى شقة رجل من (الخوى خوى) .. »

فكرت فى الأمر .. إنه على قدر لا بأس به من التهذيب والرقى .. دعوة كريمة لا شك أننى ملبيها ، خاصة أننى بالفعل لا أعرف عنهم شيئًا .. عرفت الكثير عن الزولو

والخوسا ، لكن لو كنت فى امتحان وطلب منى أن أكتب خمسة أسطر عن (الخوى خوى) لرسبت بجدارة ..

هكذا مشينا فى الطريق المظلم الخالى نتكلم .. بشكل ما كنت أعرف أن هذا بلده . هذا الطريق يعرفه .. الأشجار تعرفه .. لن نتعرض لخطر ما ... إنه يقول للأشجار والوحوش والمعتدين المتوارين خلفها : دعوه .. فهو معى !

* * *

كانت الشقة صغيرة كما توقعت ... نظيفة كما لم أتوقع ... على الأقل لم أجد جثة فيل وقد اقتطعت منها أجزاء للشى ..

طبعًا هنك ركن عملاق فيه مكتبة هائلة الحجم ... كتب طبية لا حصر لها بعضها عتيق جدًا .. تشريح (جراى) وكتاب (هاتشنسون) للفحص السريرى .. كتب الزمالة البريطانية .. كتب فلسفية وكتب عن تاريخ أفريقيا ..

دعك من هذا ... هناك صورة عملاقة للفتاة أفريقية .. ملامحها غريبة جدًا بوجهها الأقرب إلى الطفولة والنظرة الوجلة فى العينين كنظرة غزال خائف .. فم دقيق جدًا

لم أر مثله من قبل .. مع فم كهذا تصير التغذية الكلية بالمحاليل TPN احتمالاً واردًا جدًا ، فلا يمكن لملعقة أن تدخل بين هاتين الشفتين .. الصورة عتيقة لها ذلك الطابع لرسوم القرن الثامن عشر ، أو كأنها لوحة من كتاب (وصف مصر) ..

تطلُّ هذه الصورة على متحف .. نعم مُتحف حقيقى للتراث الأفريقى .. عباءات ملونة زاهية تفترش الأريكة .. درع معلق يحيط به رمحان .. أصنام صغيرة .. أقنعة على الجدار ..

مد يده لجهاز الكاسيت فامتلأت الحجرة بأصوات غناء قادم من مكان ما عبر الزمان .. طبعًا هى أغانى (الخوى خوى) فلا داعى للسؤال .. أغان كهذه لا تبتاعها من أقرب محل كاسيت أو تجدها على قرص مضغوط .. لقد قام بتسجيلها بنفسه فى إحدى الليالى القمرية كى لا تندثر ..

مد يده إلى أحد التماثيل الصغيرة ، وقال :

ـ « هذه الأصنام تخص (الخوى خوى) .. كان قومنا يعبدون إلهًا أكبر اسمه (تسوى جواب Tsui - Goab) ..

إليه ينسب خلق الكون والإنسان .. كالعادة كان فى الأصل شخصية حقيقية .. طبيب ساحر بارع مات من ثم كثرت الأساطير حوله واعتبروه إلهًا .. »

هكذا القصة دائمًا .. على الأرجح كان (أوزيريس) بطلاً بشريًا ثم عبده الفراعنة بعد وفاته .. سألته فى حذر :

ـ « هل ما زلت تؤمن بذلك ؟ »

ـ « أنا مسيحى .. لكنى أعتبر هذه التفاصيل تراثًا يجب ألا يضيع .. »

ثم مد يده لتمثال صغير شرير الشكل ، وقال وهو يعرضه لى :

ـ « عدوُه التقليدى هو (جوناب Gaunab) .. هو الآخر كان قائدًا معاديًا وقد قتل الكثيرين من (الخوى خوى) ؛ لذا حاربه (تسوى جواب) حربًا عنيفة ، وفى كل مرة كان يهزمه .. فى الموقعة الأخيرة سقط (جوناب) على الأرض يلفظ أنفاسه ، لكنه تمكن من توجيه ضربة أخيرة حطمت ركبة (تسوى جواب) .. لهذا اسم (تسوى جواب) معناه (الركبة المكسورة) .. »

ابتسمت وكتمت رأيى فى هذا الإله المعوق الذى يعبده (الخوى خوى) .. إن (فيليب) لم يعد يؤمن بهذه الأشياء كما قال ، لكنه على الأرجح لا يقبل السخرية منها .. هذا هو منطق العصبية القبلية لا منطق الغيرة الدينية .. حتى اليهود من كارهى اليهودية مثل (فرويد) و(أزيموف) لم يكونا يطيقان أن يسخر منها أحد ..

ـ « إنه يقيم فى الشرق لذا يصلى (الخوى خوى) تجاه الشرق صباحًا .. ويزعمون أنه يعيش فى سحابة يشع منها الضياء والخير .. »

سألته :

ـ « من أين جاء (الخوى خوى) ؟ من هم ؟ »

تنهد ووضع التمثالين مكانهما فى رفق ، ثم قال :

ـ « هذه قصة طويلة ... »

* * *

قال (فيليب مبيكى) :

ـ « معنى اسم (الخوى خوى Khoi Khoi) هو (رجال من رجال) .. لهذا التعبير معنى آخر هو أنهم هم الناس الحقيقيون وما من أناس سواهم .. اعتزاز عرقى بالذات كى يشعروا بالتفوق على القبائل الأخرى هنا .. الطريف أنهم يعتبرون أنفسهم أصل الجنس البشرى وأن كل الشعوب جاءت منهم .. فى الحقيقة تشعر عندما ترى (الخويسان) الأصلى أن له جذورًا من آسيا .. ولو سمعت لغته لخيل لك فى لحظات بعينها أنها اليابانية . عندما تتحدث عنهم لا تقل إنهم (الهوتنتوت) .. هم يعتبرون هذا الاسم إهانة لأنه يعنى (المتلعثمون) .. فى الواقع كان الهولنديون يشيرون بهذا الاسم إلى امتلاء هذه اللغة بأصوات القرقعة والـ (كليك) ..

« جاء (الخوى خوى) إلى هذه البلاد عام ٥٠٠ قبل الميلاد من الشمال بحثًا عن المرعى وهربًا من ذباب (تسى تسى) ، واختلطوا بقبائل (سان) المقيمة هنا ، حتى إن الكثيرين يعتبرونهما قبيلة واحدة اسمها (خويسان) .. لكن هذا غير صحيح .. الواقع أن القبيلتين تنافستا كثيرًا جدًا على المراعى ولدرجة الحروب الصريحة ..

« إن مجتمع (الخوى خوى) طبقى .. وإن كان أكثر رقيًا من مجتمع (السان) أو (البوشمن Bushmen) .. البوشمن كانت حياتهم قاسية جدًا ، فهم لا يعترفون بالروابط الزوجية ويلقون بشيوخهم لبنات آوى .. ليس عندهم عد لأكثر من أربعة . لغتهم لا تتجاوز ٦٣ كلمة .. كنت تراهم يحملون جرة بها خمرهم المصنوعة من العسل ، وحول خصر الواحد منهم بيضتا نعام مليئتان بالماء على سبيل الزمزمية .. طعامهم هو الحشرات والجذور .. أما (الخوى خوى) فكانوا يقيمون فى تجمعات فى القرى .. وكل قرية لها رئيس يورث منصبه لابنه لدى الوفاة . وقد فضلوا التجمع قرب الساحل حيث أجادوا الصيد وبرعوا فيه .. »

« حاليًا يعيش أكثر (الخوى خوى) فى (الكيب) بعد ما قضى عليهم البيض الذين جاءوا فى القرن السابع عشر ، وقضى عليهم الجدرى .. الجدرى الذى أصابهم بسبب بطاطين بريطانية ملوثة جلبها لهم البريطانيون .. هل يذكرك هذا بشىء ؟ »

ارتجفت ، وقلت :

- « الهنود الحمر والأمريكان .. نفس الحيلة .. »

ابتسم وقال :

- « فى كل مرة يثبت الجدرى أنه جنرال استعمارى قاس لا يرحم .. والغربيون يتحالفون معه تحالفًا قويًا .. كانت هناك حروب عنيفة على أماكن الرعى مع الهولنديين .. ولم يكن (الخوى خوى) محاربين بطبعهم وقد أنهكهم الصراع ، ويمكن القول إن العام ١٧٠٠ شهد نهاية أسلوبهم فى الحياة تمامًا .. على كل حال لم يبق من (الخوى خوى) إلا خمسة وخمسون ألفًا تناثروا بين الكيب وناميبيا وبتسوانا .. هناك عدد آخر اختلطوا بالـ (خوسا) .. لاحظ أنهم يعتبرونني من (الخوسا) لا (الخوى خوى) .. »

ثم فتح مفكرة يضعها على الأريكة ، وقال :

- « انظر ما قاله عالم أجناس بريطانى عن قومى .. »

وشرع يقرأ : « لا شىء أكثر غرابة من هؤلاء الأقزام الأفارقة .. من ناحية المظهر هم أقرب للقردة .. إنهم الأدنى فى سلم الخلق .. ينامون فى الكهوف وليست لديهم فنون تميزهم عن وحوش صحراء (كالهارى) .. »

قلت فى حرص :

- « كلمات قاسية لكنها بالتأكيد لا تخلو من صحة .. تصور حياة هؤلاء القوم فى القرن السابع عشر .. لابد أنهم كانوا أقرب للوحوش .. »

أغلق المفكرة وقال فى مرارة :

- « ربما .. لكن لهجة التعالى هذه .. لا أمقت شيئاً مثل لهجة التعالى هذه .. الوغد البريطانى لم يستطع أن يعتبرهم بشرًا أصلاً .. »

ثم لمعت عيناه وقال بلهجة من يريد تغيير هذا الموضوع القذر :

- « هل تريد أن ترى قريتى معى يوم الثلاثاء القادم ؟ »

- « لكن ... »

- « صدقنى لن تندم .. أنت حر لباقى الأسبوع وأنا كذلك .. تعال معى لأن هناك شيئاً عزيزاً يجب أن تراه .. »

* * *

عزيزى أشرف :

كما قلت لك فى خطابى السابق... دعانى ذلك الطبيب الشاب من (الخوى خوى) إلى قريته فوافقت ..

على أن مفاجأة صغيرة كانت تنتظرنى لدى عودتى لوحدة سفارى هى أن هناك هجومًا حدث على .. على نائبة المدير شخصيًا .. دكتورة (فان بيردن) .

كانت السيدة الشمطاء قد أنهت عملها واتجهت لتركب سيارتها ذات الدفع الرباعى ... سيارة رجولية جدًا تناسبها فعلاً .. إنها توقف السيارة فى ساحة الانتظار المظلمة أمام الوحدة ، وهى ساحة لك أن تتصورَ منظرها .. ظلام دامس فيما عدا بعض كشافات النيون ، وصوت حشرات الليل لا يكف عن الصياح ، مع رائحة الليل الأفريقى إياها ..

لقد اتجهت المرأة إلى سيارتها فضغطت على زر (الريموت) لتفتحها ودخلت .. فى هذه اللحظة بالذات انقض رجلان على السيارة ... واحد وثب على المقعد جوارها وواحد وثب إلى المقعد الخلفى ، ووجدت نصل

سكين على عنقها يطلب منها أن تنطلق .. لقد كانا في خفة الفهود كما قالت ..

تصرف منطقي وطبيعي جداً ، فلو دعاني هذان البطلان للانضمام لهما لقبلت بحرارة .. للمرة الأولى يتصرف هؤلاء المتسللون الليليون بشكل عقلاني عادل ..

انطلقت المرأة بالسيارة وهي ترتجف رعبًا .. لا أعرف كيف يمكن أن تفزع سيدة كهذه .. ربما كانت البراكين والزلازل قادرة على إخافتها ، لكن من الصعب أن يقدر رجلان على ذلك .. أعتقد أنهما شجاعان فعلاً ..

أخيرًا توقفت السيارة في مكان مظلم في الطريق النائي الذي شهد كل عمليات الهجوم السابقة .. وقد أرغمها الرجلان على النزول من السيارة ثم أوسعاها ضربًا .. بالركلات واللكمات كالعادة كأنهما يضربان رجلاً .. أنت تعرف أن الرجال يغيرون طريقتهم في القتال إذا قرروا ضرب أنثى .. يشدون الشعر أو يوجهون الصفعات ، أما حينما يضرب رجل أنثى بقبضته وركلاته فإن الأمر يبدو غريبًا .. هذا يعني أنهما بالفعل أدركا أنهما لا يتعاملان مع أنثى .. كانا يتعاملان مع رجل هولندي فظ ..

هكذا تلقت المرأة علقة لا بأس بها ، ثم انطلق الرجلان بالسيارة مبتعدين ..

على كل حال تم إنقاذ السيدة وعادت إلى سفاري تحكي لنا هذه القصة .. قالت في فخر إنها غرست إصبعًا في عين أحد الرجلين وإنها قضمت أذن الثاني .. هذا يؤكد ما قلته لك : هذان الرجلان بائسان تعسا الحظ .. لو تأخرا وقتًا أطول لالتهمت أحشاءهما ..

هذه المرة كان الذعر عامًا وقد حققوا معنا جميعًا ..

لقد تأكد المدير أن الحوادث عرقية .. الدليل أنني كنت هنالك في الخارج وعدت في ساعة متأخرة .. برغم هذا لم يمسسني ضر .. لقد أنقذني لون بشرتي ..

على كل حال لا يوجد أفريقي لا يتمنى ضرب (فان بيوتن) بعنصريتها الاستعمارية وتعاليها ومقتها للسود .. إن أعداءها كثيرون جدًا ..

والآن لندع المزاح جانبًا ..

أنت منطقي التفكير يا (أشرف) وقد قلت لي في خطابك السابق الشيء ذاته : (فيليب مبيكي) هو مدير

هذه الهجمات .. من قال العكس ؟ يثير أعصابي ذلك الشخص الذي يصرخ فجأة : وجدتها ! .. الشمس هي مصدر الضوء والحرارة في عالمنا! ...

هذه الهجمات تدل على درجة غير عادية من مقت البيض .. درجة لم أرها إلا لدى ذلك الطبيب .. كل كلامه عن استغلال البيض للسود وعن قومه الذين أفناهم البوير .. إنه موتور بكل ما تحمله الكلمة من معان ..

هذه الهجمات لم تبدأ إلا مع قدوم (فيليب) للوحدة .. فلماذا ؟ ولماذا استمات للالتحاق بالوحدة؟

أعتقد أن الارتباط قوي والحمق هو ألا تراه .. هؤلاء (بلطجية) استأجرهم ، وهو يدفع لهم ثمن هذه الهجمات .. أو هم من (الخوى خوى) المتحمسين مثله ..

نعم .. لكن كيف يمكن إثبات هذا ؟

لا توجد طريقة .. ولن ألعب دور المجنون أو الواشي في أواخر أيامي ..

على كل حال وجدت في هذا داعيًا قويًا كي أقترب من عالمه أكثر .. أنا متأكد أنه لا يريد أن يؤذيني ..

لماذا ؟ لأنني (غلبان) مطحون مثله .. كل مناقشاتنا تدل على أنه يراني أمام المدفع مثله .. أنا أسمر البشرة أفريقي وقد استولى الغربيون على أهم بلدين في عالمي العربي ، وإسرائيل تحاول جاهدة أن تكرر مصير (الخوى خوى) مع أهلي الفلسطينيين .. ثانيًا هو كان يملك ألف فرصة للفتك بي فلم يفعل .. لا أعتقد أنه يدعوني إلى قريته كي يسلقني في قدر كبير ويتسلى بي على العشاء أثناء مشاهدة فيلم السهرة ..

سوف أذهب معه يا أشرف فإذا لم تصلك رسالة بالبريد الإلكتروني بعد يوم الثلاثاء ، فاعلم أنني أسهمت في تغذية شعب (الخوى خوى) العظيم .. ربما كان هذا هدفًا ساميًا لا بأس به بالنسبة لحياة لم تفد الكثيرين ....

* * *

عزيزى أشرف :

كما قلت سابقًا تقع قريته قرب (ناماكوالاند Namaqualand) ، ويبدو أن تلك المنطقة من المعاقل المحدودة الباقية لـ (الخوى خوى) ..

وصلنا هناك عصر الثلاثاء فرحبوا به وبضيفه فى حرارة .. إنهم أناس طيبون فعلا .. وبالفعل هم يذكرونك بالآسيويين من سكان الهيمالايا .. لون البشرة زيتونى والكثير منهم يثبتون القواقع فى شعرهم ، لكنهم ليسوا بدائيين جدًا .. لقد عرفت البدائيين حقًا عندما سمعت عن (التوركانا) وفى أكواخ (الكيكوكويو) .. لكن هؤلاء أقرب إلى الفلاحين العاديين .. دعك من أننى غرقت فى بحر من أصوات (الكليك) حتى شعرت بأن هذه اللغة ليس فيها إلا حرف واحد هو (تز) .. هذا جعل من المستحيل كتابة مصطلحاتهم بالنسبة للغربيين .. هل تذكر فيلم (إسماعيل يس) عندما قضى الرجل الساعات يحاول كتابة ذلك الصوت الغريب الذى يقوله الحوذى لحصانه ؟ هذه هى المشكلة هنا ..

التهمنا (الكاسافا) كالعادة مع شراب محلى أكد لى أنه غير مسكر ، ثم ذهبنا لتحية زعيم القرية ..

كان الليل يدنو سريعًا لذا قال لى (فيليب) إن علينا أن نسرع إذا أردنا العودة قبل الظلام ..

مشيت وراءه غير فاهم ..

إنه يغادر القرية .. يمشى فى طرق وعرة ... يتسلق بعض الوهاد .. يداعب بعض الأطفال وامرأة عجوزًا ليست فى فمها سن واحدة .. خطواته سريعة جدًا تذكرنى بكل ما أعرفه عن رشاقة السود ولياقتهم ..

ثم نمشى .. نمشى بالمعنى الحرفى للكلمة فى سهل واسع تحيط به الأشجار .. المنظر يذكرك بالحدائق المفتوحة أو المحميات .. نفس الأرض البنية ونطاق الأشجار فلن أدهش لو ....

رأيت أسرة من الأسود تلتهم فريستها تحت شجرة !!!

ارتجفت ولم أعد أشعر بساقى من تحتى .. إنها أسود فعلا ! لكنها ترقد فى كسل تحت شجرة وهذا المخبول يمر بها بذات الخطوة الواثقة كأنه يمر بأسرة وادعة من البط ..

المرات القليلة التى حدث فيها هذا معى كنت فى سيارة كما حدث فى منتزه (كروجر) .. تعرضت لهجوم الأسود

عندما جئت الحيوانات ، وذات مرة لاحقنى شبح أسد يوم قضيت ليلة كاملة مع (الماساى) ..

ـ « واراری ی ی ! »

قال لى (فيليب) دون أن يلتفت للخلف :

ـ « لا تنظر لها .. هذه الوحوش تعانى التخمة وكسول جدًا .. لن تهاجمك ما لم تشعر بأنك عصبى .. ألم يعلمك أهلك ألا تركض أمام الكلب كى لا يطاردك ؟ »

* * *

كان هذا فى شارعنا فى شبرا .. وكنت طفلاً شقيًا ..

رأيت هذين الكلبين الضالين يعرقان قطعةً من العظام على رصيف القصاب عند ناصية الشارع ، فدنوت منهما وأصدرت صفيرًا بفمى .. على سبيل المشاكسة لا أكثر ، لكنى فوجئت بهما يتحفزان ثم ينبحان .. وفجأة وجدت أن ساقى أسرع من تفكيرى .. رحت أركض مذعورًا .. فى هذه اللحظة تفتحت أبواب الجحيم ، ولم أشعر سوى بأنهما يركضان ورائى وهما ينبحان .. أحدهما كان يصدر صوتًا كالمحركات مما ينذر بالويل ..

رحت أجرى وأجرى وهما يجريان من خلفي ، بينما الناس الجالسون على المقهى يصيحون فىَّ :

ـ « كف عن الركض أيها الأحمق ! سوف يعقرانك ! »

لكن ساقى كانتا أقوى من صيغة التعقل هذه .. ما نوع الإنسان الذى يتوقف ويبتسم بينما كلبان غاضبان يركضان وراءه ؟

وسرعان ما شعرت بالنابين الحادين يخترقان قماش السراويل ليمزقا مؤخرتى !

* * *

لكنى تعلمت الدرس هذه المرة .. لن يقتصر الأمر على عضة فى مؤخرتى لو قررت هذه الوحوش أننى عصبى .. هكذا نظرت إلى الأرض ومشيت وراء (فيليب) وأنا أوشك على الصراخ . أرى بخيالى أفراد أسرة الأسود تنهض وتتبادل النظرات ، ثم تنطلق نحوى فى حماس .. عندها لن يفيد أن أقسم أن (فيليب) قال إنها مسالمة ..

لكننا كنا نبتعد بالفعل .. إن هذا الـ (فيليب) يعرف ما يفعله .. إنه ابن هذه الأحراش .. فقط على بعد

خمسين مترًا نظرت للخلف فوجدت تلك الأسود لم تغير جلستها .. كنا أتفه من أن نقلق راحتها .. شعوري بالأهمية لا يعنى شيئًا بالنسبة لها ..

كنا نخترق أعشابًا عالية .. التايجا ؟ لا يا أخي .. التايجا ليست هنا .. إنها في السهول الثلجية حيث يبرز لك الدب الروسي من خلفها .. هذه هي السافانا على ما أذكر ..

ولكن إلى أين ؟ إلى أين ؟

فجأة رأيت ذلك النصب المحاط بالنباتات .. إنه قبر حديث معتنى به .. لكن له طابعًا فريدًا لا يمت بصلة لقبور المسلمين ولا المسيحيين ولا اليهود .. إنه قبر واحد من هؤلاء القوم .. هناك شاهد بدائي فقير ورسوم ساذجة أفريقية الطابع ..

يقف (فيليب) أمام القبر مطرقًا ..

فجأة يسقط على ركبتيه ويتهدل كتفاه .. كل شيء فيه يتهدل حتى شعرت أن أنفه يوشك على لمس الأرض ..

إنه يبكي .. يبكي بلا صوت .. ثم يرفع عقيرته للسماء وينشد شيئًا ما بتلك اللغة الغريبة التي لا أعرف كنهها .. لكن القرقعة تتسرب حتى إلى مقاطع الأغنية .. ماذا

يقول ؟ ما هي الكلمات الرهيبة التي تصف هذا الموقف الأكثر رهبة ؟

أدنو منه وأضع يدي على كتفه لكنه لا يشعر ..

أتأمل القبر بإمعان .. وسط الكتابة الغريبة أقرأ بحروف لاتينية واضحة اسم (سارتجي بارتمان Saartjie Baartman) ..

هذه هي إذن .. حبيبته التي فقدها على الأرجح ..

مضت دقائق ثم رأيته ينهض .. يمسح أنفه بكمه ويقول لي :

ـ « هيا بنا .. »

* * *

عزيزى أشرف :

برغم أننى لم أفهم شيئًا ، فإن هذا المشهد الرهيب ظل فى ذاكرتى فترة لا بأس بها ..

مشهد الطبيب الشاب العبقرى وهو يبكى أمام قبر وسط السافانا أثر فى بشدة .. فشلت فى استخلاص أية معلومات منه عن صاحبة القبر .. إنها قريبته وكفى .. هذا كل شىء ... لكن لماذا يحمل لها كل هذا التقديس ، ولماذا يختصها برحلة الثلاثاء هذه ؟

أسئلة كهذه لم يجب عنها .. دعك من أننى أعرف أن الإجابة لا تستحق .. هى غالبًا إجابة رومانسية جدًا تشعرنى بأنه تافه سخيف .. رومانسيتنا التى تبكينا فى أسرتنا ليلاً لا تعنى أى شىء للآخرين .. إنها عملات لا يمكن تداولها إلا فى بلدها وزمنها الأصليين كعملات أهل الكهف التى فشلوا فى شراء طعام بها ..

عرفت صديقًا لا يكف عن تصديع رأسى بآلام فقد (هبة) .. ما شأنى بهذا وأنا لا أعرف (هبة) ولا يهمنى أن أعرفها ؟

النقطة الثانية هى أننى أجد صعوبة فى ابتلاع فرضيتى السابقة .. هذا الفتى الذى ركع يبكى أمام قبر ليس بالضبط الطراز الذى يستأجر (بلطجية) لضرب الأطباء .. من يدرى ؟ ربما كنت أنا وأنت أحمقين كالعادة ...

هكذا عدنا تحت عباءة المساء .. لحسن الحظ لم تبال أسرة الأسود بنا .. لقد اختبرت حظى مرتين ، لكنى لن أختبره مرة ثالثة مهما حدث ..

إن موضع عضة الكلبين فى مؤخرتى ما زال يؤلمنى بعد كل هذه السنين ..

* * *

كنت جالسًا فى الكافتيريا ألتهم طعام الغداء (الذى لا أعرف ما هو) عندما رأيتهما يقتربان وكل منهما يحمل صحفة عليها أطباقه ..

استغرقت لحظة أطول من اللازم كى أعرف أن هذه ليست (برنادت) .. إنها (مادلين كوفييه) الطبيبة الفرنسية الرقيقة .. أما الرجل فكان (فيليب) طبعًا ..

رآنى فهز رأسه فى لطف ، ثم بحث عن مقعدين منعزلين فلم يجد .. هكذا اضطر أن يقتاد الفتاة إلى

حيث كنت أجلس أنا .. وقدرت أنه يتمنى لو انشقت الأرض فابتلعتني بلا رجعة .. إنه منهمك في إزالة الأسوار المؤدية إلى قلبها ولا يريد من يضايقه الآن .. لا بأس .. سوف أنهي طعامي وأرحل .. لكن لا تطالبني بالرحيل جائعًا من فضلك ..

قال لي مداعبًا :

ـ « كيف حالك ؟ »

ابتسمت ولم أعلق .. فقال للطبيبة الحسناء :

ـ « كان في قريتي أمس .. لا أدري إن كان أحب الوقت الذي أمضاه هناك أم لا ، لكن من المثير أن يرى المرء ما تبقى من قرى (الخوى خوى) .. »

كان يتكلم الإنجليزية .. وكانت هي تتكلمها وإن كانت تفعل ذلك بلهجة مثيرة للضحك ، وقد اندهشت من أن هناك من يجيد الفرنسية إلى الحد الذي أملكه أنا .. إنه المران .. الحقيقة أنني ضبطت نفسي أيام الكاميرون أفكر بالفرنسية عدة مرات ..

قال لي (فيليب) وهو يشير إلى (مادلين) :

ـ « (مادلين كوفيه) .. هل تعرف من جدها الأكبر ؟ »

احمر وجهها خجلاً على حين قلت أنا في سماجة :

ـ « السيد (كوفيه) طبعًا .. »

ـ « نعم .. ولكن هل تعرف عن أي (كوفييه) أتكلم ؟ عن (جورج كوفييه) Georges Cuvier »

(جورج كوفييه) .. هذا الاسم يتبدى وسط الضباب كأنه لحن أغنية قديمة لم أسمعها منذ الطفولة .. الثانوية العامة .. وحدة الوراثة ... كان الاسم هناك ..

أنقذني (فيليب) إذ صاح :

ـ « إنه العالم الفرنسي العظيم الذي قام بدراسات كبرى في الوراثة والتصنيف .. طبيب بونابرت الخاص .. تصور أن حفيدة (كوفييه) معنا هنا! »

تشرفنا .. إن هذه الفتاة نسخة من (برنادت) فعلاً .. أسرتها عريقة ثرية لكنها فضلت العمل في أحراش أفريقيا .. على كل حال لست منبهرًا جدًا بالأخ (كوفييه) لأني لا أذكر ما قام به بالضبط .. سوف أفتش عن اسمه في المراجع فيما بعد ..

بدأ (فيليب) يحكى لها .. يحكى لها الكثير عن وطنه وعادات شعبه ومغامراتهم ، وكانت عيناه تلمعان فتلتمع عيناها .. إذن كان تقديرى للأمور صحيحًا .. هذا هو المدخل الذى اختاره للوصول لقلبها .. لن يتظاهر بأنه غربى متحضر مثلهم ، بل سيكون (الخوى خوى) جدًا .. ربما أكثر من الحد الطبيعى ..

كان يحكى لها أشياء مسلية .. بدأ ينشدها بعض الأغانى العتيقة بصوت خفيض ..

هنا تدخلت فى الكلام فقلت :

- « عم كانت تتكلم تلك الأغنية التى أنشدتها أمس ؟ »

- « إنها حزينة جدًا .. »

- « وماذا تحسبنى أتوقع ؟ عندما يقف المرء أمام قبر فهو لا يغنى لشم النسيم .. »

قال فى شرود :

- « تقول الكلمات : ترى أين أنت أيتها العروس ؟ ترى هل ما زال أهلك يذكرون قدميك الصغيرتين تمرحان فى الدار ؟ هل ما زال حبيب القلب يهمس باسمك كل غروب عندما تشتعل النيران فى ساحة القرية ؟ أين أطفالك

الذين لم تنجبيهم ؟ هل لحقوا بـ (تسوى جواب) فى سحابته الداكنة ؟ »

ولمحت دمعة متجمدة فى عينه تأبى أن تزول وتأبى أن تنحدر ..

الموضوع خطير وساخن جدًا إذن ...

غادرت القاعة بعد ما فرغت من الأكل ، ونظرت إلى الخلف لأجد أنه قد قرب رأسه من (مادلين) وراح يكلمها عن أشياء أخرى .. شعرت بحنين لتلك الأيام الغابرة فى (سفارى) عندما كان اسم الفتاة (برنادت) والطبيب (علاء عبد العظيم) ...

لكن ألا ترى معى يا أخ (فيليب) أن هذه الفتاة بيضاء البشرة وبالتالى هى من معسكر الأعداء ؟ هل جمعت قلبين فى صدرك ؟ أم أنك تفكر بعقلية المحارب التى تضرب الرجال وتسبى نساءهم ؟ هل تتكرر عقدة (موسم الهجرة إلى الشمال) رائعة (الطيّب صالح) ؟ حينما شعر البطل أن الطريقة الأفضل لقهر الغرب هى قهر امرأة غربية ؟

فعلاً أنا لا أفهم ..

* * *

فى المساء تمّ الاعتداء على طبيب ألمانى .. هذه المرة كان الاعتداء أكثر شراسة حتى إن الطبيب يرقد الآن فى العناية المركزة بكسر فى قاع الجمجمة .. عينان متورمتان مغلقتان تقريبًا .. غيبوبة ..

لقد تحولت وحدة (سافارى) إلى ثكنة لرجال الشرطة .. تحقيقات فى كل صوب .. هذه الهجمات ليست عبقرية ولم يُخطط لها بعناية .. إنها نوع من التحرش لا أكثر ، لكن هناك دومًا من يمشى فى ساعة متأخرة وحده فيهاجمه هؤلاء السود ..

السبيل الوحيد لجعلنا نساعد الشرطة هى أن يثيروا فى قلوبنا الذعر ، وقد فعلوا هذا بنجاح .. قالوا لنا إنهم غير مسئولين وإن علينا أن نعنى بأنفسنا .. لن يبقى من تعرضوا للهجمات أحياء فى كل مرة .. سرعان ما يكون هناك قتيل ..

علقوا لافتة فى كل مكان بالوحدة تنذرنا من العودة فى ساعة متأخرة أو الاطمئنان إلى الغرباء .. وأعتقد أننا أصبنا بحالة من البارانويا الحادة .. كل واحد يعتقد أنه مراقب وأن أنفاسه تحصى عليه .. لكنى كنت أفضل

حالاً .. لقد وضعت نفسى فى كل المواقف الممكنة التى تغرى بمهاجمتى لكن أحدًا لم يفعل .. لقد تأكدت من أننى أتفه من التحرشُ بى ..

وسط هذا كله قابلت (فيليب) وكان يزمع المرور على عنابر الملاريا ويريد أن أكون معه .. كان المرح يبدو عليه وهو يصفر لحنًا مرحًا أعتقد أنه فرنسى ..

سألنى بطريقة عابرة :

ـ « هل من مشاكل ؟ لا تبدو على ما يرام .. »

ـ « أنا كذلك .. »

ثم قلت بلهجة جدية :

ـ « أريد أن أنفرد بك بعض الوقت .. ثمة أمور أريد أن أعرفها .. »

* * *

عزيزى أشرف :

هذا هو المشهد الإجبارى كما يصفه كتاب السيناريو ..

نعم أنا مجنون .. من قال العكس ؟ لكنك تعرف أننى لا أستريح أبدًا إلى أن أتلقى الجواب عما يخطر بعقلى من أفكار وشكوك ..

لقد اتجهت معه إلى غرفة صغيرة فى نهاية المعبر .. غرفة ذات جدران زجاجية مما نطلق عليها اسم المراقبة .. جلس وسماعته حول عنقه ومعطفه الأبيض مفتوح وعيناه تتساءلان .. أنت تعرف أن الأطباء كانوا يعلقون السماعة فى أعناقهم معدة للتثبيت على الأذنين ، حتى عرض مسلسل (سانت السوير) الطبى الأمريكى الذى جعلهم جميعًا يعلقون السماعة كالكوفية ..

قال لى :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

بحثت عن بداية مناسبة للكلام ، وفى النهاية قلت :

ـ « أنت تعرف كم أحبك واحترمك .. لهذا لا أريد لشائبة شك أن تعكر صداقتنا هذه .. بصراحة .. هل لك علاقة ما بما يحدث هنا ؟ »

ـ « ما الذى يحدث هنا ؟ »

ـ « حوادث الاعتداء على أطباء غربيين .. هذه الحوادث بدأت بعد قدومك .. أنت لا تحمل أى ود مفقود نحوهم جميعًا ، ومن الواضح أن المعتدى من داخل الوحدة ويعرف مَنْ يهاجم بالضبط .. هل تلمح فى كلامى اتهامًا ما ؟ »

بعدوانية نظر فى عينى وقال :

ـ « نعم .. »

ـ « إذن أنا نجحت فى توصيل رسالتى .. لكننى أكتفى بكلمة (لا) بسيطة وسوف تريحنى .. »

قال وهو ينهض :

ـ « بصراحة أنت أحمق .. هل تتوقع منى أن أتخلى عن دور الطبيب لأجند جيشًا من (البلطجية) ؟ ولو كنت قد فعلت هذا ، فهل تتوقع أن أعترف بهذه البساطة لمجرد أنك تريد هذا ؟ »

قلت فى شبه توسل :

ـ « إنها الصداقة .. أردت أن تنفى ليستريح ضميرى .. »

ـ « وأنا لن أريحك .. جرب أن تتساءل بعض الوقت .. »

ثم غادر الغرفة وعلى شفتيه ابتسامة قاسية أجسر أن أصفها بالكريهة .. لقد قامرت وخسرت .. كنت أعتقد أنه بذكائه الحاد سوف يعرف الفارق بين من يتهمه ليحرجه ، ومن يتهمه ليريح ضميره .. لكننى خسرت بهذا أهم صديق لى فى هذه الوحدة ..

قلت إننى مجنون .. هذا شىء لا تتناطح عليه شاتان كما يقولون .

والأدهى أننى لم أعرف الإجابة بعد .. ظل غامضًا كما هو .. لو أنه انفجر غضبًا وقال أشياء من قبيل (لن أسمح لك .. احترم نفسك) .. إلخ لأراحنى .. لكن هذا الغموض لم يزح الستار عن أى شىء ..

على كل حال أعتقد أن نورى انتهى عند هذا الحد .. على الأقل لن ألتقى علقة ساخنة فلا خوف علىّ بهذا الصدد ..

* * *

مكتبة وحدة (سافارى) تقع فى نهاية الممر الذى بشكل حرف T .. إنها فى الطابق الثانى وعليك أن تمشى لها فى ممر طويل تحيط به الأبواب من الجانبين .. ممرٌ كابوسى جدًا من ممرات أفلام الرعب إياها .. كان قدرك هو المكتبة ولا فرار ...

تقع المكتبة قريبة جدًا من مسكن الأطباء ، كأنها تذكرهم بأن وقت الراحة مخصص للدراسة .. هناك باب زجاجى كتب عليه « ش ش ش ش! » .. ثم تدخل لتجد نفسك فى قاعة مكيفة حسنة التنظيم .. هناك سكرتيرة أفريقية صبغت شعرها باللون الأصفر تنظر لك بعينين متسائلتين .. لا أطيق هذا المنظر المفتعل ورأيى أن الله خلق لكل جنس بشرى ما يناسبه .. الآسيويون والأفارقة أجمل بالشعر الأسود فمن الحماقة أن تحاول أنت تغيير هذا لأنه ببساطة لا يليق بلون البشرة ..

ـ « معذرة .. أبحث عن كتاب أو مرجع يتكلم عن أعلام الطب .. »

ـ « الخزانة الثالثة على يسارك .. كتاب (من هو من فى العلم ؟) .. ليس لدى كتاب متخصص فى الطب لكن هذا يؤدى الغرض .. هل يناسبك ؟ »

ـ « أعتقد .. »

كانت بارعة فعلاً ؛ لأنى وجدت أن هذا الكتاب يفوق توقعاتى .. جلست إلى منضدة صغيرة وتفحصت الفهرس المرتب أبجديًا .. هذه هى الأسماء الرهيبة التى نسينا أنها أسماء بشر وتحولت إلى أسماء أمراض .. (أديسون) .. (هتشنسون) .. (هودجكين) .. (مالورى) ...

(كوفييه Cuvier) ! هذا هو ... !

كانت الصورة تظهر رجلاً شديد الكبرياء ثقيل الظل نوعًا .. أما النص فيقول :

« كوفييه ، جورج ١٧٦٩ـ١٨٣٢ »

« هذا العالم الفرنسى يعد من أهم أقطاب العلم فى القرن التاسع عشر .. ويعد من أهم من ترأسوا أكاديمية العلوم .. »

« درس فى شتوتجارت حتى عام ١٧٨٨ ، ثم صار معلمًا لأطفال أسرة نبيلة فى (نورماندى) . وذاعت شهرته كأحد المؤمنين بالمذهب الطبيعى بعد هذا تلقى دعوة للعمل فى باريس كأستاذ تشريح الحيوان فى متحف

التاريخ الطبيعى الذى تم تأسيسه بعد الثورة الفرنسية .. وحينما صعد نجم (بونابرت) فاز (كوفييه) بمناصب مهمة فى مجال التعليم ، وهى مناصب ظل يحتفظ بها بعد عودة الملكية. وفى العام ١٨٣١ نال لقب بارون . »

« لقد عمل (كوفييه) فى كل مجال علمى تقريبًا .. وقيل إن بوسعه أن يعيد تركيب هيكل عظمى كامل من عظمة واحدة فيه. وقد صار عمله أساس علم الحفريات الفقرية .. لقد أجرى تعديلات مهمة على تقسيم المملكة الحيوانية ، وقام بترتيب الحفريات والكائنات الحية ضمن هذا التصنيف .. وبرهن على أن الانقراض حقيقة علمية . »

« كان يؤمن أن الكائنات الحية يجب أن تصنف طبقًا للوظيفة وليس المظهر ، وقد خاض جدلا عنيفًا مع معاصره (جيفرى) حول نظرية التطور والارتقاء .. قد افترض أن الأنواع الجديدة نشأت بعد سلسلة من الفيضانات المتكررة .. وكانت دراسته لحوض أنهار باريس هى مصدر نظرية ترابط الطبقات الحيوية .. »

« كان (كوفييه) من ألد أعداء نظريات (لامارك Lamarck) فى التطور .. لم يؤمن بالتطور العضوى لكنه آمن بتكرار عملية الخلق بعد الكوارث الطبيعية .. »

أغلقت الكتاب ورحت أفكر ..

إذن هو أقرب إلى عالم تشريح مقارن منه إلى طبيب ..

نعم .. أنا أذكر أشياء كهذه من وحدة الوراثة في كتاب الثانوية العامة .. فيما بعد درست الوراثة بشكل مفصل ، لكن لم أتطرق قط لمواضيع الحفريات هذه لذا نسيت الاسم .. لقد سهرت الليل بالفانلة الداخلية والشاي الثقيل أحشر هذه الأشياء في عقلي ، ثم سكبتها على ورقة الامتحان ونسيت كل شيء عنها بعد ذلك ..

نظرية الكوارث .. نظرية لابأس بها تفسر نشوء أنواع جديدة .. وهذا إلى حد ما يفسر قصة الديناصورات .. لقد هلكت في ظروف غامضة من ثم سيطرت الثدييات على الأرض ..

بصرف النظر عما قاله (كوفييه) فلا يجب أن أنسى أن حفيدته هي تلك الرقيقة التي تعمل معنا هنا ، والتي يحبها (فيليب) .. هذا مثير حقًا ..

* * *

عزيزي أشرف :

قابلتها عندما كنت أجول في عنابر الملاريا .. الملاريا في صورها العنيفة طبعًا .. كانت واقفة هناك جوار فراش مريض ممن تمازحه فدنوت منها .. أشرق وجهها كالعادة .. (مادلين كوفييه) ..

قلت لها وأنا أنحني في احترام مصطنع :

ـ « جئت من المكتبة حالاً .. كنت أبحث عن معلومات عن جدك .. »

احمر وجهها وقالت :

ـ « هل وجدت أن شجرة أجدادي مشرّفة ؟ هل تنوي أن تطلب يدي ؟ »

كدت أقول لها إنني بالفعل تزوجت نسخة منها ، لكن لا تقل للمرأة أبدًا إنك لا تريد الزواج منها لو أتيحت لك الفرصة ، لذا ابتسمت بدوري وقلت :

ـ « كان اسم جدك يتردد في كتب المدرسة بلا انقطاع .. »

- « (فيليب) يقول هذا أيضًا .. إنه إنسان ممتاز وشديد المجاملة .. »

- « أرى ذلك .. »

وحييتها بهزة رأس وابتعدت .. الحقيقة أننى كنت أتمنى أن أصارحها بمخاوفى لكن هذا يفتقر إلى الحكمة .. لن تفهم مرادى .. ما جدوى هذه المعلومة وكيف أبرهن عنها ؟ مجرد ظنون سخيفة ، ولسوف تكون النتيجة أن أفقد صداقتها هى الأخرى .. لم يحدث قط أن تدخلت فيما لا يعنينى وسمعت شيئًا يرضينى ..

هكذا فضلت الصمت ..

* * *

على أن الأحداث تطورت بسرعة جهنمية فى هذه الليلة .

لقد وجدت خارج الوحدة عددًا أكبر من اللازم من سيارات الشرطة .. أضواء .. صخب .. لابد أن هناك اعتداء آخر ..

لكننى شققت طريقى وسط المتزاحمين لأجد ذات الطبيبة الإيطالية (سيمونيتا) تجرى مكالمة هاتفية .. فضوليون جدًا هؤلاء الإيطاليون وهم دومًا أول من يعلم ..

سألتها فى غباء عما يدور هنالك فقالت فى مرح :

- « لقد اعتقلت الشرطة هؤلاء المعتدين ... »

- « يا له من خبر ! »

- « يبدو أنهم استعملوا أسلوب الكمين .. لقد أقنعوا (فاسيلى) بأن يكون هو الطعم وراقبوه بعناية من بعيد .. كانت مهمة (فاسيلى) أن يجول حول الوحدة فى الظلام بلا انقطاع .. وسرعان ما وقع هؤلاء فى الشرك .. لقد أحاط به أربعة منهم وأوشكوا على الفتك به ، لكن رجال الشرطة ظهروا من سماء صافية وقبضوا على المعتدين .. »

(فاسيلى) هنا ؟ لهذا السبب تبدو فخورًا كالبطة .. إنه (فتاها) وقد حقق هذا النصر ..

فى هذه اللحظة ظهر المدير ونائبه وسط الزحام .. كان مرهقًا لكنه راض .. وصاح فينا :

- « هلموا يا شباب .. لقد عادت المياه لمجاريها .. »

دنا منه طبيب يوناني يسأله في عصبية :

- « لماذا كانوا يفعلون ذلك ؟ »

- « يمكن أن أقول إن هذا ليس من شأنك ، لكن أرى أنكم تستحقون توضيحًا فقد اعترف هؤلاء على الفور ومن دون أن نوجه أسئلة .. لقد قمنا بفصل أحد فنيي المختبر من (الخوسا) منذ فترة .. د. (فان بيرلن) هي التي فعلت هذا .. مجرد رجل مهمل غير نظيف اليد ، لكنه أصر على أننا فصلناه بسبب الاضطهاد العرقي وأقسم على أن ينتقم من كل البيض هنا .. هذه اللعبة لا تفشل أبدًا .. يبدو أنه أقنع بعض الرجال بنبل قضيته ، وهكذا راحوا يمارسون تلك الاعتداءات الانتقامية .. إنها قصة مؤسفة لكنها حادثة فردية لا تدل على شيء .. لقد انتهت أزمنة الأبارتايد .. كلنا زملاء هنا والكفاءة هي المقياس .. »

ثم عاد يكرر كلامه بنبرة أعلى :

- « فليعد كل لعمله .. لقد ساد السلام ونامت الحملان مع الأسود .. »

رأيت (فاسيلي) وسط الزحام ، وقد وضع منديلاً على أنفه .. برغم كل شيء قد تلقى لكمة أدمت أنفه .. ويبدو أنني رأيته مصابًا ثلاثة أرباع الوقت الذي عرفته فيه .. دنوت منه ومسحت على رأسه فتأوه .. قلت له مازحًا :

- « أنت تمارس هوايتك الدائمة في التحول إلى سجادة . »

قال وهو يتمخط دمًا :

- « آي ! إن هؤلاء السود أقوياء حقًا .. بالمناسبة أحد هؤلاء له عين مصابة والآخر قضمت أذنه .. سيكون من العسير عليهما تفسير هذه الإصابات .. »

- « إنها نائبة المدير الرقيقة ذات الأنوثة الطاغية .. »

وهكذا ساد الهدوء المكان ..

يمكنك أن ترى يا أشرف أننا كنا أحمقين كالعادة .. كانت استنتاجاتنا خطأ ، ومن الواضح أنني مدين باعتذار رقيق للدكتور (فيليب) .. أحمد الله على أنني لم أطلع الدكتورة (مادلين) على شكوكي فلا داعي لخسارة اثنين إذا كان بوسعك أن تخسر واحدًا فقط ..

* * *

عزيـزى أشرف :

حزنت بشدة لهذا القرار الذى اتخذته أنت بـأن تنهى العقد وتعود .. أكاد أنصحك بالاستمرار حيث أنت والتحمُّل ، لكنى أعرف أن النصائح لا تجدى وأنك اتخذت قرارك على الأرجح منذ زمن .. أعرف أن سـوء المعاملـة عامل مهم بالنسبة لك .. سواك قد يبتلع ذلك ويصمد ، لكنك حار الدماء سريع الغضب مثلي ، ولطالمـا أوقعتك طباعك هذه في مشاكل لا حصر لها ..

أضف لهذا موضوع عدم حصولك على مستحقاتك .. وددت لـو نصحتك بـأن تصبر قليلاً ، لكنى أعـرف أن (من على الشط عوّام) ، وأن الكلام سهل حيث أنـا .. لربما كنت أنت فى الجحيم بعينه ..

على كل حـال سيتيح لـك هذا فرصـة أن تسمـع أول صرخة لابنك .. هذا الوغد الصغير سيكون أصلع بدينًا كأبيه .. ولن أندهش لو نزل من بطن أمه راكبًا سيارة (١٢٤) عتيقة ..

نعود إلى أخبارى ...

كما قلت لك كانت الوحدة فى أحسن حال من الهدوء .. لم يعد أحد يخشى أى شىء .. لقد عرفنـا طرفًا من التحقيقات .. بالفعل هى قضية عرقية واضحة ، لكن ذلك الفنى الذى تم فصله كان وغدًا بالفعل ولا يستحق أية رحمة .. فى هذه القضايا يكثر الشهداء ويسهل على موظف كسول مرتش أن يلبس ثياب البطل الذى عوقب لأنه أسود .. لكنـه من قبيلة قوية ، وقد عرف كيف يحشد قومه من خلفه .. وصار من السهل أن يتحرَّش بأطباء الوحدة الذين يعرفهم واحدًا واحدًا.

* * * *

أمس كنت أقوم بجولة فى العنابر حينما قابلت (مادلين) الطبيبة الفرنسية الحسناء .. لقد حكيت عنها لـ (برنادت) وأرسلت صورة رقمية لنا نقف أمام (سافارى) .. سرنى أن (برنادت) جنت غيظًا .. أنت تعرف هذه اللذة الخبيثة التى يشعرها الرجل حينما تغتاظ امرأته لدى رؤيته مع أخرى .. معظم الرجال يستمرئون هذا الشعور وربمـا يبالغون فيه ، إلى أن يفلت الحبل منهم وتصدق نساؤهم ما يتخرصون به ... وهكذا يفلت الحب بالتدريج ..

سرنى أن (برنادت) أصيبت بالغيرة ، برغم أنه لا معنى لأن يحب المرء اثنتين من (برنادت) .. عندى واحدة وهى كافية جداً ، فلو راح قلبى يعبث بعيداً لاختار واحدة تختلف عن (برنادت) فى كل شىء .. سوداء الشعر .. سمراء .. إلخ .. كنت أعتقد على كل حال أن هذا مستحيل ولكن شيئا كالفيروس تسلل لـ ...

لماذا أقول لك هذه التفاصيل وأنت ثرثار كما عرفتك دائمًا لا تبتل حبة الفول فى فمك .. ؟

أقول إننى قابلت (مادلين) فى المعابر ، وكانت مشرقة كالشمس منتشية ..

قالت لى بعدما انتهت من عملها (هنا لا يخلطون بين العمل والمرح) :

ـ « على فكرة .. أردت أن تعرف أن (فيليب مبيكى) قد طلب يدى ، وقد وافقت .. »

دهشت للخبر لكنى توقعته كما قلت لك من قبل .. أكره أن أكون على صواب طيلة الوقت لكنها الحقيقة .. راجع خطاباتى السابقة تجد هذه الفقرة :

« على الأرجح سيفوز بها لأنه من (الخوسا) .. إنه فريد من نوعه ، بينما يلتف حولها طيلة الوقت هؤلاء الأطباء الأوروبيون شقر الشعور متوردو البشرة زرق العيون .. كلهم يتشابهون ولا شك أنها سئمتهم جميعًا .. وسط هذا الطوفان الأوروبى الباهت يظهر (فيليب) فريدًا غريبًا عظيم الكبرياء .. لأسباب كهذه اختارتنى (برنادت) أنا لأننى بدوت مختلفًا .. لا أعرف إلام ستسير الأمور .. فلننتظر ولنر .. »

كنت دقيقًا كالعادة .. فقط استبدل كلمة (الخوسا) بكلمة (الخوى خوى) ، لأنى لم أكن أعرف مدى اعتزازه بنفسه إلى هذا الحد ..

إن (فيليب) شخص رائع .. فقط لو لم تكن عقدة (موسم الهجرة إلى الشمال) تستحوذ عليه ، فإننى أرجو لهما كل خير .. كل شىء فى هذه العلاقة يذكرنى بقصتى مع (برنادت) .. فقط هو أكثر براعة وتمكنًا علميًا منى .. وأنا أقل منه تعصبًا مضادًا ومرارة ..

قلت لها :

- « لقد فاز كلاكما بأفضل واحد ممكن .. دعك من ولعي الخاص بالعلاقات التي تهدم حاجز اللون والجنسية .. أشعر وقتها أن العالم يستعيد صورته التي خلقها عليه الله وشتتناها نحن .. »

مدت يدها في جيب المعطف فأخرجت علبة لاتن صغيرة ، ودست في يدي قطعتين .. لا أعرف علاقة هذا بالموضوع لكنه تطوُّع لا بأس به ، وقالت :

- « غدًا الثلاثاء .. لقد دعاني لقريته في هذا اليوم المهم بالنسبة له .. »

الثلاثاء ؟ نفس الطقوس والبكاء أمام القبر و .. و ... سوف تحب هذه الطقوس لكنها لن تتحمل أن تراها تتكرر طيلة الوقت ..

كانت مسرورة كالأطفال ، فلا أحد يعرف الكثير عن (الخوى خوى) .. يمكنك أن تقابل الزولو في كل مكان .. يمكنك أن تقابل الهنود والعرب ، لكن (الخوى خوى) صاروا عملة نادرة فعلاً ..

هكذا حكيت لها بسرعة عن زيارتي القصيرة هناك ..

- « سوف تمرين أمام أسرة من الأسود ، ولسوف ينصحك ألا تصابي بالذعر! »

- « سأثق به .. إنه يعرف ما يفعله .. »

- « هذه هي المشكلة .. يجب أن تقتنعي الأسد الأول أن (فيليب) يعرف أكثر! »

وتبادلنا حديثًا طويلاً ثم افترقنا ..

سأحكي لك عن زيارتها في رسالتي القادمة .. فقط أطلب منك أن تسترد مرحك القديم قليلا ..

* * *

عزيزي أشرف :

اليوم الأربعاء .. كنت اليوم أعاين بعض مرضى الإيدز .. إن جنوب أفريقيا بلد فريد من نوعه .. هنا تجد خليطًا عجيبًا من التخلف والأمراض الأفريقية مع التقدم الذي يدير الرءوس .. أحيانًا يخيل لك أنك تمشى فى (لندن) وأحيانًا تتخيل أنك تمشى فى بقعة مهجورة فى (زامبيا) ..

لم أعتد بعد هذا الوباء الذى حل بجنوب أفريقيا .. الإيدز .. طاعون العصر الشنيع الذى لم نعرف له حلاً بعد .. وهم هنا يطبقون أسلوبًا عدوانيًا للعلاج اسمه HAART .. أسلوب فعال فعلاً ونتائجه لا بأس بها لكنه مكلف جدًا ..

مشكلة الإيدز الأساسية هى ارتفاع ثمن أدويته .. ولا شك أن العالم الذى سيصل إلى لقاحه سوف يدخل التاريخ ليحتل مكانه إلى جوار (باستير) و(كوخ) وسواهما ..

من الغريب أن (فيليب مبيكى) و(مادلين) لم يعودا أمس .. هل قررا المبيت فى تلك القرية ؟ إنه لم يتخلف

قط عن مرور صباح الأربعاء هذا .. وهى ؟ كيف أمضت ليلتها فى قرية بدائية وبيئة لا تعرف عنها شيئًا ؟

سألنى عنها طبيب فرنسى ، فقلت إننى لا أعرف .. لماذا يسألنى أنا بالذات ؟

* * *

عرفت ضمن عنابر الإيدز مريضًا من جنوب أفريقيا اسمه (دانيل تويزك) .. إنه مصاب بالمرض منذ عامين ، وهو شاعر أفريقى واسع الثقافة .. اللحية المنتفشة الكثة والنظرة الحالمة التى تخترقك ... لكنى لم أسأله عن ظروف إصابته بالمرض .. على كل حال قد كونت قاعدة تقضى بأن ٢٠٪ من مرضى الإيدز هنا لا ذنب لهم فيما أصابهم .. الباقون يمكنك أن تخمن قصتهم بمجرد النظر ..

كان (دانيل) من الطراز الأخير .. لقد أصيب بالداء لأنه استحقه ..

على كل حال عملى هو علاجه لا أن أحاسبه على تلك الليلة السوداء التى .. بالإضافة إلى أنه كان رجلاً ظريفًا بالفعل ..

جلست معه فى شرفة غرفته المطلة على حديقة (سفارى) نتكلم عن البلاد ، وبالطبع كان لى اهتمام خاص بـ (الخوى خوى) لأن صديقى الأهم منهم .. هكذا عرفت منه أكثر ما أعرفه اليوم عن هؤلاء القوم ..

قال لى وهو يتصفح مفكرة بجواره :

ـ « هناك قصيدة بالإنجليزية كتبتها عن (سارتجى بارتمان) .. رمز (الخوى خوى) اليوم .. تقول كلماتها .. »

وبدأ يقرأ ..

لكن الاسم دق جرسًا فى ذاكرتى .. أين سمعت هذا الاسم ..؟

* * *

« يقف (فيليب) أمام القبر مطرقًا ..

فجأة يسقط على ركبتيه ويتهدل كتفاه .. كل شىء فيه يتهدل حتى شعرت أن أنفه يوشك على لمس الأرض ..

إنه يبكي .. يبكى بلا صوت .. ثم يرفع عقيرته للسماء وينشد شيئا ما بتلك اللغة الغريبة التى لا أعرف كنهها ..

لكن الفرقعة تتسرب حتى إلى مقاطع الأغنية .. ماذا يقول ؟ ما هى الكلمات الرهيبة التى تصف هذا الموقف الأكثر رهبة ؟ »

* * *

لاحظ نظرتى الشاردة فقال ، وهو يتحسس لحيته المشعثة فى ضيق :

ـ « أنت لا تركز معى .. »

ـ « هذا الاسم .. (سارتجى بارتمان) . »

ـ « سارة .. فى العادة نطلق عليها اسم (سارة) .. هذا هو الاسم الذى يفهمه الغرب .. »

قلت كالحالم :

ـ « القبر! »

ابتسم فى حنكة ، ومد يده إلى ورقة تم قصها من صحيفة ، وقال لى :

ـ « أنت زرت قبرها ! هذه الورقة تحكى لك كل شىء .. »

نهضت حاملاً الورقة فصاح فى غيظ :

ـ « ألن تسمع القصيدة ؟ »

ـ « فيما بعد .. فيما بعد .. »

لقد نجوت بأعجوبة .. عندما يصمّم واحد من هؤلاء الشعراء على أن يسمعك تحفته الأخيرة ، فليس سوى الديناميت بقادر على إسكاته .. إن رأسي يوشك على الانفجار فلا ينقصه إلا هذا الدبوس الأخير ..

وهكذا اختليت بنفسي في غرفتي ورحت أقرأ للمرة الأولى قصة (سارة) ..

بعبارة أخرى قصة (فينوس الهوتنتوت) ...

* * *

فينوس الهوتنتوت

رقيقة لها عينان لوزيتان حزينتان وفم دقيق .. فم لا يمكن أن تدس ملعقة فيه ..

فتاة (الخوى خوى) التي ولدت في القرن الثامن عشر في شرق الكيب على ضفاف نهر (جامتوس) .. أجمل فتاة في القبيلة .. ومن أجلها يتقاتل الفتية ويتبارون على رمي الرماح لمعرفة من أقواهم ذراعًا .. لكن القصة معروفة .. من سيفوز بها هو الذي يملك القطيع الأكبر من الماشية ...

(سارتجي بارتمان) أو (سارة) كما صاروا يدللونها .. (سارة) النضرة .. (سارة) الجميلة تتأوّد قاصدة النبع لتملأ الجرار .. إنها تحمل كل مقاييس الجمال عند (الخوى خوى) ومنها تلك المؤخرة الممتلئة التي يراها الأوروبيون مضحكة ، لكنها ذروة الحسن عند هذه القبائل ..

بالنسبة للهولنديين لم يكن قوم (سارة) إلا مجموعة من البدائيين لصوص الماشية . وكان الهدف الأهم هو استئصالهم تمامًا ..

لقد اختطفت (سارة) عام ١٨١٠ .. بيعت لطبيب بريطانى اسمه (دنلوب) ، ووضعت على ظهر سفينة تتجه إلى إنجلترا .. لم تعرف أنها لن ترى وطنها أبدًا .. وأنها ستكون رمز الاستغلال العنصرى وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان ، حتى إن قصتها ستروى فى أكثر من عمل درامى ...

لم تكن معاملتها هى أفضل معاملة فى الكون . لقد نقلوها مباشرة إلى سيرك (بيكاديللى) ليعرضوها هناك .. أطلقوا عليها اسم (فينوس الهوتنتوت) .. وكان نشاطها اليومى بسيطًا للغاية : كانوا يعرضونها عارية فى كل مكان تقريبًا ، والناس يدفعون ثمن التذاكر فى حماس ... لم يكن (الخوى خوى) يميلون للعرى لكن الأوروبيين جعلوها تتعرى حتى تتمشى مع تصورهم للمرأة البدائية ..

كانت (سارة) صغيرة الرأس ممتلئة المؤخرة بشكل مبالغ فيه كعادة قومها ، وهذا دفع الأوروبيين للمجىء

لرؤية هذه المعجزة ، والصور المرسومة لها فى تلك الفترة تظهرها عارية تمامًا تقف فى مكان كحلبة السيرك ، بينما مدرب وحوش - مدرب حقيقى - يضرب مؤخرتها بعصا التدريب .. وكان يأمرها بأن تقف أو تجلس مع الكثير من (آلى أوب) طبعًا ..

كان هناك إنسان .. إنسان واحد فقط غضب لما يحدث ، والسبب هو أن لون بشرته كان يشبه لون بشرتها .. إنه ثائر من (جامايكا) يدعى (روبرت ويدربيرن) .. الحقيقة أن (ويدربيرن) كان شخصية مثيرة للاهتمام .. وقد اعتقل مرارًا .. من أسباب هذه الاعتقالات أنه طالب بحق العبيد فى أن يثوروا ويقتلوا سيدهم بلا محاكمة ! فى فترة من الفترات النادرة التى لا يكون فيها فى السجن ، بدأ حملة تطالب بإعادة الإنسانية لهذه الفتاة ..

هكذا وجد البريطانيون أنهم مضطرون لمنع ظهور سارة فى السيرك بعد الضوضاء التى أحدثها هذا الثرثار ..

لكن المحكمة البريطانية احتجت بأن (سارة) مرتبطة بعقد مع (دنلوب) .. طبعًا كان هذا هراء .. فما الذى تعرفه (سارة) عن العقود أصلاً ؟

بعد أربع سنوات بيعت لمتعهد وحوش مفترسة من باريس .. وانتقلت إلى باريس لتعرض على المسارح تحت سيطرة مدرب وحوش .. بل إن تشريحها الغريب تسلل إلى الأوبرا لتقدم كوميديا ساخرة اسمها (فينوس الهوتنتوت) .. والدلائل تشير إلى أن من اشتراها كان يستغلها فيما هو أسوأ على سبيل الحصول على المزيد من الأرباح ..

لقد تمّ استغلالها ، لكن هذا لا يختلف كثيرًا في الواقع عن استخدام فتيات حسناوات للفيديو كليب ، ولا يختلف عن مسابقات ملكات الجمال .. إنها المرأة في أحط صورة لها .. مجرد حيوانٍ جميل .. لكن (سارة) كانت أكثر نبلاً ، لأنها لم تفعل شيئًا بإرادتها بل أرغمت على طول الخط ..

ماتت (سارة) عام ١٨١٦ في سن الخامسة والعشرين .. هذا يخبرنا بنوعيةِ الحياة التي عاشتها في أوروبا الودود الرحبة .. ويقال إنه داء (الزهري) ..

لم يبك أحد على (سارة) ، ولم يلحظ أحد أنها ماتت وحيدة غريبة في بلد بارد .. لكن يمكن القول إن بقاياها لم تذهب سدى ..

هنا يدخل الدكتور (جورج كوفييه) إلى المسرح .. العالم الفرنسي المرموق الذي رأى (سارة) ذات مرة على المسرح ، فوصفها قائلاً :

ـ « إن في حركاتها نوعًا من البدائية والنزوة يذكرنا بالقردة .. »

ومنذ ذلك الحين وقع العالم في غرام (سارة) .. الغرام لأنها كان عجيب طبعًا .. هناك قصة غرام مشابهة بين بطل كمال أجسام وعالم التشريح (هنتر Hunter) الذي كان يريد أن يتبرع له البطل بجسده وهو حي من أجل تشريحه ! طبعًا ثار البطل غضبًا وطرد العالم ، لكن العالم كانت قصة رعب ظل يطارده في كل مكان إلى أن مات البطل هلعًا ، وبالفعل ظفر (هنتر) بالجثة ! إن هؤلاء العلماء عباقرة لا شك في هذا ، لكنهم يكونون أحيانًا في غاية القسوة ويعاملون الإنسان كشيء ..

تموت (سارة) فيأخذ (كوفييه) الملهوف الجثة فينتزع منها المخ وبعض الأجزاء الحساسة ، ويحتفظ بهذه الأشياء في الفورمالين ، ثم يحتفظ بهيكلها العظمي ويصنع قالبًا للجسد .. ويجري دراسات تشريح

مقارن يثبت بها أنها أقرب إلى القرد .. بالذات إنسان الغابة (أورانج أوتان orangutan) .. برغم أنه لم ير (أورانج أوتان) قط .. هكذا استخدم (سارة) ليثبت أن الأوروبي مخلوق بشكل أفضل وأسمى من الأفريقي ..

ظلت رفات (سارة) معروضة في متحف باريس حتى عام ١٩٩٤ .. موضوعة في إناء زجاجي ملفوف بورق أبيض .. أي إنها لم تنل الراحة حتى بعد الموت ، وطالب (مانديلا) بعودة رفاتها إلى أرضها .. فلم يستجب الفرنسيون لطلبه إلا عام ٢٠٠٢ ، وبعد حملة مكثفة شارك فيها أساتذة جامعة وشعراء ومخرجو سينما .. في النهاية سمح مجلس الشيوخ الفرنسي بالإفراج عنها .. هناك كثيرون قاتلوا من أجلها .. لكنها لا تعرف هذا .. وللمرة الأولى تلمس أجزاؤها ثرى الوطن منذ عام ١٨١٠

كانت امرأة أفريقية وحيدة بلا عون ولا أقارب ولا مال في أوروبا .. ثم ماتت فلم يهتم أحد إلا بعرض بقاياها .. الجادون رأوا أنها تشبه القرد ، وغير الجادين سخروا منها ..

إنها الدليل الحي على قسوة الإنسان وتشدقه بالشعارات بينما هو يأكل لحم أخيه حيًا ..

* * *

« أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد .. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .. »

* * *

عزيزى أشرف :

كانت القصة مؤثرة أليمة ..

لكنى لم أجد وقتًا للدموع ..

لقد فطنت للمرة الأولى إلى نقطة خطيرة هنا ..

(جورج كوفييه) !

(جورج كوفييه) .. العالم الفرنسى العبقرى الذى قدم الكثير لعلم التشريح المقارن .. العنصرى المغرور الذى لم يحترم (سارة بارتمان) حية أو ميتة واعتبرها إلى القرد أدنى .. الوحش الذى احتفظ بمخها وأعضائها التناسلية فى وعاء زجاجى ليعرضها للعالم ...

هذا الـ (جورج كوفييه) هو جد (مادلين) ...

و(مادلين) الآن مع (فيليب ميبكى) .. (فيليب ميبكى) الذى يبكى على قبر (سارة) كل ثلاثاء .. هى الآن معه فى قريته ... !

هل أخطأت الاستنتاج ؟

لقد بذل (فيليب) جهدًا جهيدًا كى يكون فى وحدة (سفارى) وجهدا جهيدًا كى يفوز بإعجاب (مادلين) ..

* * *

قال لى (فيليب) وهو يشير إلى (مادلين) :

ـ « (مادلين كوفييه) .. هل تعرف من جدها الأكبر ؟ »

احمر وجهها خجلاً على حين قلت أنا فى سماجة :

ـ « السيد (كوفييه) طبعًا .. »

ـ « نعم .. ولكن هل تعرف عن أى (كوفييه) أتكلم ؟ عن (جورج كوفييه) Georges Cuvier .. العالم الفرنسى العظيم الذى قام بدراسات كبرى فى الوراثة والتصنيف .. طبيب بونابرت الخاص .. تصور أن حفيدة (كوفييه) معنا هنا! »

* * *

هناك صورة عملاقة للفتاة الفرنسية .. ملامحها غريبة جدًا بوجهها الأقرب إلى الطفولة والنظرة الوجلة فى العينين كنظرة غزال خائف .. فم دقيق جدًا لم أر مثله من قبل ..

مع فم كهذا ، تصير التغذية الكلية بالمحاليل TPN احتمالاً واردًا جدًا . فلا يمكن لملعقة أن تدخل بين هاتين الشفتين .. الصورة عتيقة لها تلك الطابع لرسوم القرن الثامن عشر ، أو كأنها لوحة من كتاب (وصف مصر) .. »

★ ★ ★

ما السبب فى كل هذه الحماسة ؟

الآن أرى كل هذا على ضوء خافت ..

وأرتجف ..

★ ★ ★

عزيزى أشرف :

لم تكن لدى خطة ..

إن مخاوفى أسخف من أن أحكيها لأحد .. لكن كيف أبقى هنا وحدى أتحمل أنياب القلق التى تقضم روحى ، خاصة إننى الوحيد الذى يمكن أن تكون عنده فكرة عما حدث ...

حاولت أن أتهمك بالخبل ، واعتبرت نفسى مجرد معتوه آخر .. إنهم كثير هذه الأيام .. لا يجب أن أكون عبقريًا لمجرد أننى أنا ...

لكنى عند المساء كنت قد فقدت صوابى بالفعل .. ما الذى سأخسره ؟ سوف أسمع بعض عبارات السخرية .. لن أخسر (ميكى) لأننى فقدته بالفعل ..

وجدت قدمى تحملاننى إلى مكتب المدير د. (بالينجا باليا) .. أمر بالسكرتيرة التى تنظر لى فى دهشة ، ثم أدخل المكتب لأجد المدير أشيب الشعر ذا الشارب الأبيض الكث الذى يذكرنى ببالنجانة ألصقوا عليها قطعًا من

القطن الأبيض ، وكان يتكلم في الهاتف فرفع حاجبيه في دهشة لدى دخولي وأشار لي بالجلوس ..

لما انتهت المحادثة نظر لي متسائلاً ، فابتلعت ريقي ..

أيه .. هذا أنا .. لكني سألعب الدور حتى نهايته .. رباه .. ليست الشجاعة هي مواجهة طلقات الرصاص دائمًا ..

ـ « سيدي .. هناك ما يدعوني للظن بأن الدكتورة (مادلين كوفييه) في مشكلة .. »

ـ « أنا منصت .. »

ـ « أعتقد أنها .. لن أقول مختطفة ، لكن لنقل إنها عاجزة عن العودة .. »

* * *

ـ « وهذا ما دفعني للشك في الأمر ... »

انتهيت قصتي ورحت أتأمل وجهه الأسود المفعم بالحكمة .. كان قلقًا .. سرني هذا .. على الأقل لم يعتبرني مخبولاً ..

قال لي ، وهو يغلق ملفًا أمامه :

ـ « أنا شديد الحساسية تجاه أية احتمالات لخلافات عرقية هنا .. ليس هنا .. ليس الآن .. لهذا ملأني حادث ضرب الأطباء هذا ذعرًا .. لكني بالفعل أعتقد أنك تبالغ نوعًا .. لم يتأخرا كثيرًا عن الوحدة .. الحالة تخلف عن العمل ، لكنها لم تدخل في عداد مسببات القلق .. »

ثم داعب شاربه وقال مفكرًا :

ـ « لكن .. (كوفييه) .. هم م .. لا يمكن أن تكون مصادفة .. لقد بذل (مبيكي) جهدًا عنيفًا للالتحاق بالوحدة .. هل يكون السبب أنه عرف أن حفيدة (كوفييه) تعمل فيها ؟ كلما فكرت في الأمر بدا لي معقولاً .. »

كان في دوامة التردد الشهيرة ، وفي النهاية رفع سماعة الهاتف وقال لي :

ـ « ليس أمامي إلا حل واحد .. سوف نبعث بك إلى تلك القرية .. ابحث عنه .. ابحث عنها . حاول أن تنقذ ما تقدر عليه .. »

* * *

هكذا ترانى من جديد يا (أشرف) متجهًا إلى القرية ..

نفس الطريق ، لكنى هذه المرة وحدى .. فقط سائق (سافارى) هو الذى يجتاز بى الطرق إلى ناماكوالاند .. رأيت من النافذة ذلك النهر العملاق الذى لم ألحظه فى رحلتى السابقة .. القرويات يغسلن الآنية والغسيل فى الماء بينما يستحم أطفالهن العراة إلى جوارهن .. مشهد يمكن أن تراه فى أى جزء من ريف مصر ..

سألت السائق عن اسم هذا النهر العظيم ، فقال :

ـ « نهر (جامتوس) يا دكتور .. »

أعرف هذا الاسم .. على ضفافه ولدت (سارة) يومًا ما منذ قرنين ..

وشعرت بقشعريرة تجتاح عمودى الفقرى ...

كانت القرية تدنو ..

وصلناها عند قدوم المساء فترجلت من السيارة .. وتنفست بعمق ليملأ النيل الأفريقى رئتى ..

المشاعل فى كل مكان ، وقد وقف الكثيرون يراقبوننى فى فضول ..

دنوت من أول رجل وجدته وسألته بصوت عال :

ـ « د. (مبيكى) .. (فيليب مبيكى) .. »

بدا عليه الذعر الغاضب وتراجع خطوة إلى الخلف وقال بإنجليزية رديئة :

ـ « ليس .. هو .. هنا .. هنا هو ليس .. »

لكنى أدركت على الفور أنه يكذب .. إنهم لا يثقون بالغريب القادم فى الظلام ..

هنا سمعت صوته يقول فى ثقة وهدوء :

ـ « تعال يا دكتور .. أنا هنا .. »

* * *

(باقى رسالة علاء)

كان يقف على باب أحد الأكواخ الطينية .. لم أعرفه فى البدء لأنه كان يرتدى تلك الثياب الغريبة .. إنها ثياب وطنية طبعًا لكنها مزيج فريد من العرى والريش والقماش زاهى الألوان .. وقد ثبت بعض القواقع إلى شعره .. لم أر أحد (الخوى خوى) وقد لبس ثيابًا وطنية جدًا إلى هذا الحد ..

كان يبتسم فى ثقة ثم أشار لى ، وكلم القوم بلغة لا أعرفها فهدأ روعهم قليلاً ..

أعتقد أنه قال شيئًا على غرار (هذا معى فلا تقلقوا) .. أو (ده راجل غلبان) كما نقول فى العامية ..

قال وهو يشير لى كى أدخل الكوخ :

ـ « أنت ذكى كعهدى بك .. استنتجت كل شىء .. »

قلت وأنا أدخل :

ـ « بالعكس .. لم أستنتج إلا أنك هنا .. »

كان يتصرف بشكل مختلف .. نوع من الثقة أقرب إلى الغرور ، كما يتكلم ويمشى وينظر زعماء المافيا فى الأفلام .. لقد تغيَّر كثيرًا جدًا ..

داخل الكوخ كان عجيبًا .. هناك مشعل وقصعة بها طعام لا يسر الناظرين ، وكتاب طبى سميك .. خليط غريب جدًا .. وقد جلست متوترًا أنتظر ما سيقول .. لكنه آثر الصمت ..

قررت أن أسأل أنا :

ـ « أين (مادلين) ؟ »

قال بلا مبالاة :

ـ « إنها هنا .. »

ـ « وماذا تفعل هنا ؟ »

ـ « إنها خطيبتى إن لم تكن تذكر هذا .. »

جلده الأسود الزيتونى يلمع فى ضوء اللهب ، وأشعر أن عينيه زجاجيتان ..

قلت فى ضيق ، وقد نفد صبرى :

- « دكتور ... أرجو أن تكف عن المراوغة .. لا تقل إن حفيدة (كوفييه) هى الفتاة الوحيدة التى راقت لك على ظهر الأرض .. »

قال وهو يشعل غليونًا غريبًا أقرب لملعقة كدست فيها أعشاب عطرة :

- « لهذا راقت لى .. لأنها حفيدته .. »

- « لن تستطيع إبقاءها هنا للأبد .. »

- « لا أرى سببًا يمنع ذلك .. »

وفجأة ازداد عصبية بلا سبب مفهوم .. طوح بالغليون فى الأرض وركله وصاح فى غضب :

- « هل تعرف من هى (سارة بارتمان) ؟ إنها أم جدتى ! ... كل قبيلتنا تتوارث قصة اختطافها وكيف حسبوها قد ماتت .. قالوا إن البيض خطفوها وقتلوها .. أما أنا فعشت حتى قرأت القصة كاملة ... ليتهم قتلوها فعلاً .. أم جدتى جردوها من ثيابها وعرضوها عارية فى السيرك ، وحينما ماتت عرضوا أجزاءها فى متحف التاريخ الطبيعى .. لم يعرف قومى هذا لحسن

حظهم ، لكن المعرفة سقطت على كاهلى لأنى قرأت صحف الغربيين ومجلاتهم بلغتهم .. عرفت الحلقة المفقودة فى قصة أم جدتى ، ثم جاءت رفاتها من فرنسا .. عرفت من فعل ماذا .. كان الانتقام ميراثًا نلته بالكامل .. وصار على أن أنتقم لروحها .. لن يهين أحد (الخوى خوى) وينجو بلا عقاب .. نحن رجال من رجال .. هل تفهم شرف الاسم ؟ (الخوى خوى) .. »

قالها ومد يده ليلتقط عصا كانت معلقة على جدار الكوخ ، وراح يطوّحها كأنه يؤدى فقرة فى سيرك .. لم يكنْ يهددنى لكنه يستعرض قوته ..

أى !

إن الأمور سيئة فعلاً ...

عدت أسأله بصوت مبحوح :

- « أين (مادلين) ؟ »

لمعت عيناه ، وقال وهو يجذبنى من معصمى :

- « تعال معى .. »

* * *

عرفت سبب هذه المشاعل التى تناثرت فى القرية ..

عرفت سبب هذا الزحام .. ولماذا بقى الأطفال ساهرين ..

عرفت سبب هذه الرقصة الخالية التى صنعوها بأجسادهم فى وسط ساحة القرية .. كأنهم يلتفون حول ساحر القبيلة ..

عرفت لماذا يردد الجميع لفظة (الخوى خوى) بلا انقطاع ..

فى وسط الساحة رأيت الرجال يجرون ما بدا لى كثور برى هائج .. ثور صغير الحجم جداً .. ثم ابتعدوا فأدركت أنها (مادلين) مقيدة اليدين .. كانت كاسية لكنها تلبس جوالا قذرًا صنعوا فتحات لتخرج الأطراف منها ..

كانت منكوشة الشعر فى حالة جنون تقريبًا .. ويبدو أنها أنهت ما لديها من دمع فجاء دور الدم .. أعتقد أنها تلقت ضربات كثيرة كذلك ..

أرغموها على الوقوف فى وسط الحلبة على حين اتجه (فيليب) نحوها فى تؤدة ، وهو يطوح عصاه فى الهواء بتلك الطريقة الشبيهة بالسيرك ، كأنه هو سيد الحلبة .. يقول عبارات بلغتهم التى لا أفهمها .. ثم ينظر نحوى ويترجم :

ـ « ها نحن (الخوى خوى) نعرض عبدتنا البيضاء .. لن نتمادى فى إهانتها بل سنفعل بالضبط ما فعله أجدادها بجدتنا .. لاحظ أننا متفوقون أخلاقيًا فهى مستورة الجسد .. حتى هذا حرمت منه جدتنا .. »

ثم مد يده ليمسك بشعر رأسها الأصفر فى قبضته بقسوة فهببت غاضبًا :

ـ « (فيليب) .. أنت مجنون !! »

بل هو مخمور على الأرجح .. كيف لم ألحظ هذا ؟

هنا امتدت عشرات الأذرع تحول بينى والنهوض .. إن الهجوم عليه انتحار ..

كأنه لم يلحظ اعتراضى قال وهو يجذب شعرها حتى ليوشك على تمزيقه :

ـ « هذا الشعر الأصفر.. بلون الموت .. بلون القىء .. بلون المرض والسقم .. »

ثم ترجم ما قاله ، ومد يده إلى خدها :

ـ « لون البشرة الشاحب كأنها ماتت منذ دهور .. كيف يمكن أن نصف بالجمال كائنا بهذه البشاعة ؟ كيف يعتبرون أنهم أجمل منا وأكمل ؟ أين اللون الأسود

الجميل وأين الشعر الخشن المليء بالحيوية ؟ إننى لا أرى هنا امرأة ولكن سحلية مسلوقة .. »

هتفت (مادلين) فى وهن :

- « أنت مجنون ! »

إن الصدمة لقاسية .. لقد جاءت هذه القرية مع حبيبها ورأسها محشو بالرومانسية ، فإذا به يريد عرضها فى سيرك .. ترى هل شعرت (سارة) بشىء كهذا ؟

مد يده بالعصا فضربها على مؤخرتها حتى صرخت ألمًا وهتف :

- « هذه المؤخرة النحيلة كأنها مصابة بالدرن .. أين هى من مؤخرات الأفارقة الملينة ؟ لماذا يعتبرون أنهم هم البشر ولا بشر سواهم ؟ »

ضحكات الأطفال تتعالى مع صيحات الاستحسان ...

وجه لها ضربة أخرى آمرًا :

- « هيا .. تحركى على الحلبة ليراك قومى ! »

ثم عاد يصيح :

- « هذا هو ما حل بابنة قريتنا (سارة بارتمان) .. وحيدة معدومة الحيلة فى بلد غريب .. هذا هو انتقامى من الفتاة البيضاء .. أما لو هلكت من فرط المعاناة فلسوف أقوم بتحنيطها وأعرضها على كل زائر .. هذا ليس قاسيًا .. لقد فعل جدها (كوفييه) ذات الشىء بجثتى .. هيا .. تحركى ! »

مرغمة مشت بضع خطوات ثم تعثرت فسقطت فقط لتنهال عليها ضرباته ..

- « واهنة كطفل .. تفتقر إلى جمال وصحة نسائنا .. قل لى ماذا يمكن أن يروق لكم فيها ؟ إنها أحط منا بمراحل .. »

هنا لم أتحمل أكثر فوثبت من مكانى ..

على الفور لم أعرف ما يحدث لى ..

عشرات الضربات واللكمات انهالت على من كل صوب .. كل ما اهتممت به هو أن أحمى عويناتى من أن تتهشم .. ولكن فى اللحظة التالية هوت عصا ثقيلة على مؤخرة عنقى .. هذا كل ما أذكره عن الموضوع ...

* * *

(باقي رسالة علاء)

كانت الآلام تمزق عقلي ..

عندما أفقت وجدت أنني راقد وسط الأوحـال .. يبدو أنه لم يعد في جسدي جزء لم يتلق الضربات .. في كل مكان تنبض تلك الشموس وتخفت بـلا انقطاع .. لمـاذا ترتبط بدقات قلبي ؟

كان الظـلام شبه تـام ، وإن لمحت بقايا جذوة لهب هنا أو هناك ..

على بعد خطوات كـان (فيليب) يرقـد على الأرض يغط وهو يمد يده .. على بعد خطوتين كـان إنـاء من فخار نصف مليء بسائل لا أعرف ما هو .. خمر طبعًا .. الساحة شبه خالية ما عدا بعض الرجـال راقدين على الأرض يغطون في نوم عميق ..

الآن .. آي ! أفهم القصة .. لقد أفرطوا في الاحتفـال وشرب الخمر ، ومن الواضح أن ما في عروقهم لم يعد دمًا بل هو كحول تسبح فيه كريات بيض وحمر ..

رأسي يدق كأن بداخله يـد هـاون تحملها ربـة بيت نشيطة حقًا .. ربما أمي بالذات ..

لكنني نظرت إلى المنصة أو الساحة التي كان العرض يُمارس عليها .. وسط المشاعل المنطفئة كانت (مـادلين)- متكورة على نفسها داخل الجوال .. لقد كفت عن البكاء منذ دهور وصارت تهتز لا أكثر .. لقد دفعت غاليًا ثمن ما فعله جدها ..

مشيت في حذر نحوها .. وهززتها .. ففتحت عينيها وصرخت في هستيريا :

ـ « لا !! أنا لم أفعل لك شيئًا! »

ـ « اصمتي يا بلهاء ! »

وكمّمت فمها بيدي ..

إن الفرصة سانحة .. السائق نائم في السيارة خـارج القرية .. فقط لو حالفنا الحظ إلـى أن نتسلل بهدوء .. عندها سوف ..

ساعدتها على النهوض ..

ومتوكئة عليّ بدأنا نشق طريقنا وسط الرجال المخمورين ..

فجأة شعرت بيد تطبق على كاحلي كما يفعل الزومبي فـي أفلام الرعب .. نظرت فـي هلـع لأسفل لأجد (فيليب) أحمر العينين منكوش الشعر يمسك بكاحلي ويقول :

ـ « لـن تهرب الفتـاة .. سوف .. سوف تظـل هنـا للأبـ .. للأبد ! »

ركلة عنيفة جعلته يطلق سراح كالحلي ، لكن من أين جاءت الركلة إذا كنت أعرف يقينا أنها ليست ساقى ؟ ساق سوداء نحيلة راجفة ...

نظرت لأعلى فوجدت ذلـك العجوز رئيس القريـة .. كـان يضـع عبـاءة ثقيلـة علـى كتفيـه وهـو يرتجـف .. وينظر لـ (فيليب) بحدة .. وقال شيئًا بلغتهم ، ثم نظر لى وقال بإنجليزية متعثرة :

ـ « الرجل الأبيض قاس وقذر .. الأبيض دنس .. نحن لا نتعلم منه .. (الخوى خوى) لا يقلدون الرجل الأبيض .. رجال من رجال لا يعذبون النساء .. الرجل الأبيض يفعل لأنه دنس .. »

يا سـلام ! وأين كانت هذه الحكمة بينما الفتاة تهـان منذ ساعات ؟

كأنما سمع كلامى قال :

ـ « ابن (مبيكى) فعل هذا لأنه يعرف أننـى مريض .. الزعيم لم يكن ليوافق .. هو فعلها وأنا مريض .. »

ثم أشار إلى بعيد وقال :

ـ « خذ المرأة وارحل .. »

هب (فيليب مبيكى) ليحتجُ .. التقت عيناه بعينى ثـم بعينى (مادلين) .. وفجأة مرغ وجهه فى الأرض وانفجر فى البكاء ... بكاء المخمورين العميق الذى ينتهى بـالنوم غالبًا.

أمسكت بذراع (مادلين) واقتدتها خارج القرية وسط الدجاج والخنازير التى بدأت تفيق من سباتها.

* * *

وفـى طريق العودة بعدمـا اسـتردت أنفاسـها قليـلاً سألتها بحذر :

ـ « ماذا تنوين عمله ؟ »

قالت وهى ترمق معالم الطريق فى ضوء الفجـر من النافذة :

ـ « لا شىء .. »

ـ « ألن تقدمى شكوى للشرطة ؟ »

قالت دون أن تنظر لي :

ـ « نعم لن ، أقدم شكوى .. أعتقد أننا لن نرى (فيليب ميبكو) ثانية وهذا يكفيني .. بشكل ما أعرف الآن مدى الإهانة والقسوة التي تعرضت لها تلك الفتاة البائسة .. لقد قتلوا روحها على أساس أن السود ليست لهم روح .. بشكل ما أعتبر أن جنسي الأبيض مدين باعتذار لهؤلاء القوم .. لقد قدمت أنا هذا الاعتذار .. صحيح أنني ما زلت حية ، لكني أعتبر أننا متعادلان الآن .. لقد سددت ديوني كاملة .. سددتها كاملة ! »

وهنا انفجرت في البكاء ..

لقد عادت غددها الدمعية تعمل بعد فترة الجدب الطويلة هذه ..

* * *

اللازحام

سيارته معطّلة ..

من جديد وبعد يومين من عودتها من عند الميكانيكي .. إن أشرف يوشك على الجنون غيظًا .. هؤلاء الناس يحسبون أنه ينهمك في طبع النقود في الأوقات التي لا يعمل فيها ..

من جديد يركب سيارة التاكسي ..

هذه المرة أيضًا ينطلق في شارع جامعة الدول العربية ، لكن لغرض مختلف ..

سائق التاكسي لا يكف عن الثرثرة .. هناك دومًا لجان مرور وأمناء شرطة سمجون وضابط يصر على أن يرى مطفأة الحريق ..

يرى أشرف ميدان مصطفى محمود .. هذه المرة لم يكن تجمُّع السود هناك .. لقد حكوا له عن اشتباك قوات الأمن مع هؤلاء قبل عودته إلى مصر بيومين ..

شاب أسود فارع الطول يشير لسائق التاكسي .. ويقول شيئًا ما ..

سائق التاكسى يسبُّ ويلعن :

ـ « مستحيل أن تفهم حرفًا مما يقوله هؤلاء البكم .. »

قال (أشرف) فى صبر :

ـ « هو أيضًا لا يفهم ما نقول .. لم يكن أبواه عربيين .. لو أنك فى بلدهم لقالوا عن عربيتك ذات الكلام .. »

ـ « هراء .. الكل يفهم العربية .. »

هرع الفتى يلحق بالتاكسى المتوقف ، وركب فى المقعد الخلفى ..

ينظر له أشرف فى المرآة .. وللمرة الأولى يشعر بأنه يفهم هاتين العينين ..

استدار وسأل الفتى :

ـ « كاميرون ؟ »

كأنه لو كان من هناك فلابد أنه يعرف (علاء) .. قال الفتى :

ـ « بوركينا فاسو . »

ـ « تحرير ؟ »

لمعت عينا الفتى فى حماسة وقال بالإنجليزية :

ـ « نعم .. نعم .. ميدان التحرير .. »

ـ « زحام ؟ »

ـ « نعم .. نعم .. زحام شديد .. »

وضحك الفتى وضحك أشرف .. كأنها أقوى دعابة فى العالم ..

كانا يضحكان بينما السائق ينظر لهما فى ذهول .. ولابد أنه كان يرطم أشياء عن الناس التى جنت أخيرًا .. لابد أن الغلاء هو السبب ..

ماذا حدث بعد ذلك ؟ للأسف هذه أشياء تقع خارج نطاق علمنا فى (سافارى) ...

★ ★ ★

د. علاء عبد العظيم

من قرب ديربان

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكي يظل حيا ولكي يظل طبيبا

د. أحمد خالد توفيق

رجال من رجال

(خوى خوى) .. أو (رجال من رجال) .. هكذا أطلقوا على أنفسهم ، لكن للعبارة معنى آخر هو أنهم هم الناس الحقيقيون ولا أناس سواهم .. كبرياء ملتهبة واعتزاز بالذات قد يبدو مضحكا .. لهذا كانت الصدمة مريرة عندما رأوا تلك المعاملة القاسية ، وعندما تلقوا أفظع إهانة يمكن للعقل البشرى أن يتصورها .. عندها قرر هؤلاء (الرجال من رجال) أن ينتقموا ....

العدد القادم

هواء فاسد